

الرؤية الإسلامية للإنسان

الفاعلية والعقلانية والأخلاقية في القرآن الكريم

منى محمد عبد المنعم أبو الفضل

ترجمة

السيد محمد السيد عمر

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

الرُّؤيةُ الإسلاميّةُ للإنسانِ

الفاعليّة والعقلانيّة والأخلاقيّة في القرآن الكريم

الرؤية الإسلامية للإنسان

الفاعلية والعقلانية والأخلاقية في القرآن الكريم

منى محمد عبد المنعم أبو الفضل

ترجمة
السيد محمد السيد عمر



المعهد العالمي للفكر الإسلامي



الطبعة الأولى ١٤٤٥هـ/ ٢٠٢٤م

الرؤية الإسلامية للإنسان: الفاعلية والعقلانية والأخلاقية في القرآن الكريم
تأليف: د. منى محمد عبد المنعم أبو الفضل
ترجمة: د. السيد محمد السيد عمر

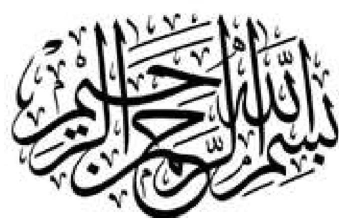
موضـــوع الكتــاب: ١- ماهيّة الإنسان. ٢- النفس الإنسانية.
٣- المنظومة الأخلاقية القرآنية. ٤- الخلافة الأخلاقية.
٥- الفكر الحداثي والأخلاق. ٦- المنظور المعرفي التوحيدي.

ردمك (ISBN): ٩٧٨-١-٥٦٥٦٤-٨٣٨-٨

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (٢٠٢٢/٨/٤٥٦٨)

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
The International Institute of Islamic Thought
P. O. Box: 669, Herndon, VA 20172 - USA
Tel: (1-703) 471 1133, Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org/ iiit@iiit.org

مكتب الأردن - عمان
ص.ب ٩٤٨٩ الرمز البريدي ١١١٩١
هاتف: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢١+ فاكس: ٩٦٢٦٤٦١١٤٢٠+
www.iiitjordan.org



المحتويات

توطئة

تحاول الدكتورة منى أبو الفضل أن تكشفَ عن الخلل الذي أصاب الفهم العلماني لماهية الإنسان ووظيفته في هذه الحياة؛ إذ يفتقد هذا الفهم وهذا التصوّر قوةً تفسيرية قادرة على تحديد العلاقة بين الخالق والكون والإنسان، وعلى فهم طبيعة العلاقة بين المطلق/ المتعالي والنسبي. وتحاول أبو الفضل في أطروحتها المتماسكة والقوية والمنطقية أن (تفكّك) الخطاب العلماني الحداثي والخطاب القرآني في نظرتهما إلى الإنسان؛ إذ كشفت عن دقة الاستخدام القرآني لمصطلح (إنسان) الذي ينضوي تحته مفهوم الرجل والمرأة على حدٍّ سواء، مبتعِداً عن التحيّز والجنسانية اللذيْن حَكَما التصوّرات العلمانية الحداثية والتشكيلات اللغوية الغربية، وما زال هذا التحيّز متأصلاً في خطابهما، ولم يرتقِ إلى عالمية الخطاب كما هو الحال في التصوّرالقرآني للإنسان الذي يُنظَر إليه بوصفه مخلوقاً أخلاقياً وقيمياً، وإذا تخلينا عن الأخلاق المطلقة لصالح النسبية والأخلاق العملية لتكوين مجتمع (عقلاني)، فإن هذا سيُعرّض البشرية إلى خطر كبير، وسيغدو الإنسان فأر مختبرٍ لإجراء التجارب التقنية عليه بوصفه مادةً وبياناتٍ فحسب، دون النظر إلى عنصره الروحي ودوره في الحياة.

وفي نظر منى أبو الفضل فإنّ التصوّر القرآني هو أفضل التصوّرات وأنفعها وأنجعها؛ إذ يجعل الإنسان محور الخطاب ومناط التنزيل. وبناءً على هذا التصوّر والمكانة تستقيم الحياة؛ إذ يغدو الإنسان المركز الأخلاقي للكون، وقد خلقه الله للقيام بمهمة الخلافة والتعمير، فهو بهذا يندمج أخلاقياً مع الحياة والعالَم. ومركزية الإنسان لا تعني تجاوزه المطلق أو التعبير عن هيمنته، بل إن القيومية لله ﷻ، والإنسان متّكل ومعتمد على خالقه اعتماداً كلياً في كل شيء، لذلك فالقول بالحرية المطلقة واستقلاله هو ضرب من الوَهْم. والانطلاق من فرضية الصراع بين الإنسان والكون باسم العلم هو أيضاً وَهْم ونرجسية مفرطة، فالكون له مكانه، والإنسان قلب هذا الكون وروحه.

أما الوَهْم الأكبر فهو كامن في النظريات والتصوّرات التي تنادي بالنسبية والأخلاق النفعية العملية ونظريات التطور التي ترىٰ الإنسان مادةً وطاقةً وغرائز، وبأن الأخلاق والقيم مجتمعيةٌ؛ ينشئها المجتمع لمصلحته وتخضع لنسبيته. وبناء علىٰ هذه المفارقة بين التصوّرين نشأت أسئلة مهمة وإشكالية عند العلماء والمفكرين في دوائر العلوم الاجتماعية والإنسانية، مثل: من الذي يحدد ماهية الإنسان وطبيعته وميوله؟ ومصدر القيم وطبيعتها؟ والمعايير التي من خلالها نحكم علىٰ الفعل بالصواب أو الخطأ؟

إنَّ هذه الأسئلة وغيرها تؤرِّق هؤلاء العلماء الذي اختزلوا الإنسان في مادية غريزية، وزاد قلقهم بعد تلمّسهم أزمة القيم والفوضىٰ الأخلاقية التي تعاني منها مجتمعاتهم، لا سيما بعد انتشار الحروب، وتفشي الجريمة، وظاهرة الاعتداءات الجنسية علىٰ الأطفال، والاضطرابات النفسية التي كشفت هشاشة بناء الفرد والمجتمع. ولم تستطع النظريات الليبرالية العلمانية الحداثية أن تضع تفسيرات منطقية لمآلات الأمور؛ لأن التصوّرات والرؤية الكُليَّة والمقدمات الكامنة في جذور الإنسانية الليبرالية العلمانية الحداثية التي تحكم إطارها النظري متناقضةٌ.

لم يكن في تصوّر أوجست كونت وهو يقسّم المجتمعات البشرية إلىٰ ثلاث مراحل (اللاهوتية والميتافيزيقية والعلمية) أننا سنصل إلىٰ مرحلة تغدو فيها الآلة والتكنولوجيا والذكاء الاصطناعي علامة فارقة في تحديد مصير البشرية، فها نحن الآن ندخل حقبة جديدة تفارق ما سبقها من الحِقَب، لِتُؤثِّر علىٰ ماهية الإنسان وكينونته، وتُثير حالة من العدمية والقلق الوجودي.

إنَّ أطروحة المرحومة منىٰ أبو الفضل الماثلة في هذا الكتاب، وفي غيره من المؤلفات والأفكار التي عرضتها في سياق نقدها للفكر الغربي، تُجلّي هذا الحصاد المرّ للثقة العمياء بالتكنولوجيا علىٰ حساب الارتقاء الفكري والمعرفي والإنساني بالإنسان، وفقدان البوصلة في التعامل مع ماهية الإنسان في التفكير الحداثي وما بعد الحداثي؛ إذ

التعامل معه بوصفه سلعةً وشيئاً دون النظر إلىٰ أصله الرباني (نفخة من روح الله) الذي يميزه من باقي المخلوقات، فهو مكوَّن فريد من العقل والجسد والروح، وله الحرية والمشيئة في اتخاذ قراراته التي تُحدد علاقته مع الله، وهي التي ستُصنّفه يوم القيامة.

إنَّ تجسيد المقارنة بين الفعل الإنساني بتفكيره وقدراته، وتجليات الذكاء الاصطناعي مثل الإنسان الآلي هي مقارنة واهمة ومزعجة في الوقت ذاته؛ إذ يفترض تماثلاً في المنطلق والماهية والمآلات. وليس نجاح الإنسان الآلي في مسابقة تعتمد علىٰ القدرات الجسدية يعني تفوقه في التفكير والمشاعر والخيال؛ إذ إنَّ هذه الأمور معقدة بصورةٍ لا يمكن للذكاء الاصطناعي أن يتمثلها، فهي امتداد لتلك (النفخة الربانية).

ولعل هذا التفكير في المقاربات والمقارنات بجعل الإنسان الآلي كياناً نشأ من اللاكيان، وعقلاً جوهراً يماهي عقل الإنسان، يُدخل الإنسانية في صراع واهم كما حدث في التفكير الأسطوري القائم علىٰ صراع مستمر بين الإنسان والطبيعة، أو ما أنتجه الخيال من صراع بين الإنسان وبعض الآلهة.

ينبغي للبشرية أن تتحاور في مآلات هذا التَّسارُع في تشكيل مجتمعات الذكاء الاصطناعي، وأن تحرص في الوقت ذاته علىٰ العودة إلىٰ مفهوم الإنسان الرباني ذي النفخة المقدسة؛ لكيلا لا تنحدر أخلاقياً في إنشاء مجتمع مجهول، يكون بؤرة لفساد عظيم بما صنعته أيدينا تمثّلاً لقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وفي الختام نشكر كل من أسهم في إخراج هذا الكتاب إلىٰ حيّز الوجود، ونخص بالشكر الأستاذ الدكتور السيد عمر؛ مترجم الكتاب، علىٰ ما بذله من جهود في تقريب متن منىٰ أبو الفضل إلىٰ القارئ العربي، بلغة انسيابية عميقة ماتعة.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

إدارة النشر

مقدمة

الغاية العامة لهذه الدراسة، هي تقديم قراءة للرؤية الإسلامية للإنسان على خلفية اهتمامات الحداثة، البارز منها والمضمر. وبؤرة تركيزها هي: العقلانية، والحرية، أو الأخلاقية. والمراد بها هو استعادة تكامل مفهوم الإنسان، واسترداد عافية مفهوم المجتمع عبر المصالحة مع الذات، واستعادة المعنى الأساسي للهدي الرباني، فيما يتعلق بالحياة الإنسانية في هذه الحياة الدنيا.

تسعى الدراسة، لتحقيق هذه الغاية، متخذةً من القرآن مصدراً أساسياً، وركيزةً لتشييد مثل تلك القراءة، ناظرة إليه على أنه خطاب رباني يتطلب قراءة متعددة المستويات والأعماق، مركزة على جوانب ذلك الخطاب المتعلقة بالخلق بوصفه محوراً مُلحّاً وملائماً، ووثيق الصلة بموضوع تطوير رؤية للإنسان الأخلاقي في المقام الأول، وللمجتمع الأخلاقي بالتبعية.

وتنبثق اعتبارات إلحاح مثل هذه المعالجة وملاءمتها من الإنسان، وتشع وثاقة صلتها به عبر كونها معالجة نابعة من نور الرسالة الربانية الخاتمة الباقية إلى يوم الدين.

تنقسم الدراسة إلى **خمسة موضوعات** على النحو الآتي:

١ - تأمُّلات أوَّليَّة حول الفكرة الرئيسة للبحث

مفتاح الدراسة، هو وضع الرؤية الإسلامية للإنسان في سياق طريقة التفكير الحديثة. فالمسلم المعاصر يعيش عصره بأفكاره ومشكلاته، ويرى علاقية الرؤية الكونية الإسلامية وأهميتها، على ضوء جديد.

ويعني القول بأن المسلم المعاصر يعيش عصره، أنه يعيش في كنف النموذج المعرفي المهيمن الغربي الإنساني المادي. وانطلاقاً من الإحساس بالفراغ الأخلاقي،

وبالمعضلات المتأصلة في ذلك النموذج، يعيد المسلم اكتشاف الأهمية المعاصرة للرؤية الكونية الإسلامية، بحيث يدرك إلحاح وملاءمة إطلاله على معاصريه بقراءة لعصره، وبتشخيص لقضاياه، يحمل في ثناياه عناصر الرؤية الإسلامية للإنسان، مع تسليط أضواء تلك القراءة على نموذجه السائد.

ومن بين المزايا المباشرة التي يمكن أن تترتب على إحياء تلك الرؤية الإسلامية، إفساح المجال أمام إمكانية إحراز ثورة استشرافية فريدة للتدبُّر في الواقع المعاصر ونقده. وهذه هي الخطوة الأولى للخروج بهذا الواقع من الطريق المسدود الذي وصلنا إليه، واستعادة اكتشاف الإنسان لنفسه، وَتعرُّف قدراته الروحية، والتوصل إلى نهاية لغربته واستلابه.

٢- الإسلام مذكوراً

يعالج مدى الحاجة لإعادة استكشاف المصادر الإسلامية، لاحتفاظها بدلالة خاصة بالنسبة لتفسير مأزق الإنسان المعاصر، فهذه المصادر تطرح رؤية معتبرة للإنسان بوصفه مخلوقاً كرمه الله تعالى، وحباه بنعم لا تحصى، وكلّفه بحمل أمانة كونية. فالإنسان -بنيوياً- مكوَّن من جسد وروح. وهو -أخلاقياً- كائن ثقافي، بفهم للثقافة على أنها جدلية دائمة، ومتخللة بين العقل والوحي. وزود الله تعالى الإنسان بالكون المسخَّر، وحمّله بغاية للتعاطي مع هذه الجدلية التي تتوقف قابليته للكمال وسداد الحضارة التي يشيدها، على فهمه لها والعمل في حدودها.

ومصدر علمنا بذلك هو ميثاق أخذه الإنسان على نفسه مع بارئه سبحانه وتعالى عند بدء الخليقة، ثم تجدد هذا الميثاق عبر النبوات المتتابعة. فما من أمة إلا خلا فيها نذير، إلى أن تُوّجت بخاتم النبيين. وهذا الميثاق محفوظ بالقرآن إلى يوم الدين، وهو قابل للتجدد وجودياً مع كل فرد مؤمن. ومحط تركيز هذا الميثاق هو: حرية الإنسان بوصفه مخلوقاً أخلاقياً واعياً صاحب إرادة وحاملاً للأمانة.

تسعىٰ هذه الدراسة إلىٰ تقديم إطلالة إسلامية خاطفة علىٰ مفهوم الإنسان، من إنسان عصري يتحسس الطريق علىٰ نحو أولي للبحث عن بديل، ويطرح الأسئلة التي يثيرها مثل هذا المسعىٰ، ويتوخىٰ أن يكون رائده هو الوعي الحصيف الرامي إلىٰ استكشاف مصادر للرؤية الإسلامية من مصدرها الأول، وبدرجة ما من العمق. ذلك أن اعتماد الإنسان علىٰ نفسه فحسب في مثل هذا المسعىٰ، يتعثر، ما لم يؤازره بهدي رباني، يكسبه مزيداً من البصائر بخصوص أبعاد الرؤية الإسلامية لعلاقته بالكون، وبقصة هبوطه الأصلي إلىٰ الأرض، وصلته الفريدة بخالقه، وما شاكل ذلك. وتعرّج الدراسة بإيجاز -علىٰ طريق تحقيق ذلك- علىٰ الجوانب ذات الصلة بهذه القضايا، في التراث العلمي الإسلامي.

٣- النَّهل من المنابع

يرتكز علىٰ التزوُّد من القرآن الكريم بوصفه كتاب هداية، ومفتاحاً لفهم الذات، واستعادة رؤية الإنسان لنفسه علىٰ النحو السَّديد، بما يوصله في نهاية المطاف إلىٰ فهم عالمه الذي يعيش فيه. وفي عملية التعلُّم الذاتي المباشر هذه نتلمَّس معرفة الجوهر، جنباً إلىٰ جنب مع الآلية أو الاقتراب المنعكس علىٰ ما نحصله من بصائر، باتخاذ القرآن إماماً.

وتفتح أولىٰ هذه التأملات المستبصرة الطريق أمامنا لمعرفة طبيعة العلاقة الفريدة المتضمنة في الهدي الرباني، وفي الاستجابة له في الصلة بين الإنسان وبارئه وراعيه. ويحدد درسها المستفاد المكانة الصحيحة للإنسان بين الاعتماد علىٰ نفسه والتمركز حول ذاته، و التبعية والاعتماد علىٰ بارئه.

وعلىٰ ضوء ذلك، يصير الهدي وسيلة للمعرفة، وللاستنارة العقلية فيما يتعلق برسالة الإنسان علىٰ الأرض، وحثّه علىٰ التصرف وفقاً لها. وشيئاً فشيئاً تنجلي أمامنا خصائص الإنسان المخاطب بالوحي المنزَّل، بوصفه المتلقي والمكلَّف

بالخطاب الإلهي، راسمةً له صورة كائن عاقل مدرك صاحب إرادة، قادر على التفكير والاسترجاع والتذكُّر، قابل للاستقامة من جهة، وقابل للضلال من جهة أخرى، ولئن يكون على شاكلة غلاظ الرقاب قساة القلوب. فالارتداد على الأعقاب بعد الهدى ليس خاصية تنفرد بها أمة دون غيرها من الأمم، بما في ذلك أمتنا الإسلامية. ويُلقي هذا المبحث المزيد من الضوء على العقلانية والإرادة الإنسانية الحرة، والملكات الفطرية للنفس البشرية التي تمكنها من الاختيار بين التزكية والفلاح، والتدسية والبوار.

وباقترابنا درجة أكبر من تلك المصادر الإسلامية، نعرف المزيد عن الإنسان. وبمعرفة المزيد عن الإنسان تتعزز معرفتنا بالله تعالى، ونتحرر من الالتباس الكامن في الرؤية الإغريقية للعلاقة بين معرفة الإنسان نفسه، ومعرفته بخالقه. فالعقل في السياق الإسلامي يشير فيما وراءه إلى الوحي، والوحي يقوم بدوره الحيوي في تنوير العقل وتهذيب النفس. والإنسان خليفة مؤتمن، مكلّف برسالة، قوامها الحب والتقوى (العبدية لله تعالى). وهو يستمد مضامينه تلك من جدلية العقل والوحي.

٤- الحديث القرآني عن خلق الإنسان

تُميّز الدراسة في الموضوع السابق بين ثلاثة مستويات من الخطاب القرآني متعلقة بمسألة خلق الإنسان، ثم تعود لتنسجها معاً هنا. وهذه المستويات هي: الخطاب المتعلق بالخلق، والخطاب المتعلق بالتكريم والتكليف، والخطاب المتعلق بالهداية. وتشعُّ هذه الخطابات الثلاثة -في حقيقة الأمر- من مشكاة واحدة هي: الهدى الرباني. ولتجلية التناسج بينها، تناقش الدراسة المستوى الأول بوصفه بؤرة لبيان مجموعة من الخصائص البارزة للرؤية الإسلامية للإنسان. وبؤرة التركيز هنا على الكيفية التي يعلمنا بها القرآن ويرشدنا إليها، ويشكل نفسيتنا، وإطار عقلنا، ويرسم لنا صراطاً مستقيماً متكاملاً موجهاً للرؤية وللحياة.

ولُباب ما نبحث عنه هنا هو حقيقة أن الرؤية الإسلامية للإنسان من منظور خلقه متأصلة فيها؛ الرؤية الكلية التي: (١) تنير وتوسع أفق معرفتنا وخبرتنا. (٢) تعمق إيماننا بالله، وتربط على قلوبنا. (٣) توفق بين الإنسان والعالم الذي يعيش فيه، بكل ما تحتمله الكلمة من معنى. (٤) ترشد الإنسان بتحقيقها لذلك التوافق إلى الحياة الآخرة، وتمكّنه من معايرة أولوياته، ومن تقويم منظوراته، ومن التصرف على نحو يجعل للحياة معنى، ويستديم ذلك المعنى ويحييه.

ويعرّج بإيجاز على الكيفية التي تشكّل بها الفكر الإسلامي المتعلق بالإنسان، وثوابت ذلك الفكر، وما اعتراه من تغيير؛ توطئةً للمحور الأخير المعنيّ بالإنسان الأخلاقي، والمجتمع الأخلاقي.

٥- الإنسان الأخلاقي والمجتمع الأخلاقي

بؤرة الدراسة هنا لا تزال منصبة على مسألة خلق الإنسان، لرسم معالم لأبعادها الوجودية والأخلاقية. والأسئلة المحورية التي نثيرها في هذا المقام معنية بمعرفة الإنسان لنفسه وأصله وغايته ومصيره، والتي انشغل الفكر الفلسفي بها منذ الأزل دون أن يصل إلى قول شافٍ، وهي جميعاً مجاب عنها في الخطاب القرآني. وبذلك البيان القرآني، لا ينعم الإنسان بالراحة القلبية النابعة من سكينة معرفة الحقيقة فحسب، بل بتوجيه طاقته على نحو بناء مؤسَّس على معرفة ما هو متوقع منه، والمبادئ التي يتعين عليه الالتزام بها طَوالَ مشوار حياته على الأرض.

وتستكشف الدراسة، في هذا السياق، مفاهيم مفتاحية تربط الإنسان بغيره، والفرد بالمجتمع، والمرأة بالرجل، مشكّلة مجتمعات إنسانية في ظل منظور رسالي للإنسان بوصفه خليفة في الأرض، اجتباه ربه، وجعل له الصدارة على غيره من المخلوقات، وائتمنه على رسالته، وجعله مؤهلاً للقيام بها، ومحل اختبار على مدى

مشوار عهده بالتكليف، ومجازىٰ علىٰ سعيه. ومن هذا الخيط تعود الدراسة إلىٰ تأكيد الأفكار الأصلية للعقلانية الإنسانية، والخلافة الأخلاقية، والتي تدور أساسيات الرؤية الإسلامية للإنسان في ضوئها حول: المثل الأعلىٰ لإنسانيةٍ إلهيةِ المركز.

تأملات أولية حول الفكرة الرئيسة للبحث

ربما يلي مفهوم (الإنسان)، مفهوم (الإله) في صدارة قائمة الموضوعات الأكثر إثارة للجدل على مدى التاريخ الإنساني. ومع ذلك، فإن الجدل بشأن مفهوم الإنسان يمثل سِمة للعصر الحديث على نحو غير مسبوق؛ نظراً لاستحواذ هذا الجدل عليه بشكل قهري، على نحو يُرثى له، ويتضاعف بالتلمُّس الأعمى للطريق، في عصر زعم الإنسان فيه أنه هو نفسه مقياس لكل شيء، فإذا به يجد نفسه دون دفة ولا بوصلة يهتدي بها في البرية.

وبدأ الإنسان مساره هذا، بتمثُّل نصيحة تبدو صحيحة وبريئة في ظاهرها، من عقل مستنير بمقاييس زمانه في إنجلترا في القرن السابع عشر. مقولته الرئيسة هي: لا تختلق سماوات لِتُنعِم النظر فيها، بل اعرف نفسك. فالدراسة التي يجدر بالإنسان أن يقوم بها هي دراسته لنفسه. فسؤال العلم ليس: من وماذا في السماوات، وإنما هو: ما ماهية الإنسان ؟. ولم يكن في تلك النصيحة ما يجافي الصواب. فحين تُقرأ في سياقها، تُعد هذه النصيحة الأكثر معقولية والتي كان من الممكن أن يقدمها الكسندر بوب لمعاصريه، في عصر عصفت به مقولات تاريخية، جرى تقديمها على أنها منزَّهة عن الخطأ، إلا أن تلك النصيحة تم الأخذ بها بحماس وبمعناها الحرفي، وجاءت ثمرتها في نهاية المطاف أشد ضرراً، وأكثر إثارة للجدل. ولم يكن العيب في تلك النصيحة، وإنما في سياقها، وفي الطريقة التي تمَّ تمثلها بها.

تعددت طرق التعريف بتاريخ الجنس البشري والثقافة والحضارة الإنسانية، وتصنيفها. وارتبطت غلبة تصنيف على آخر، ورواجه في الواقع المعيش، بالمنظور المعرفي السائد في لحظة تاريخية بعينها، فالمنظور السائد يشكل النموذج المعرفي المهيمن، ويؤسس لروافده، ولنشأته التاريخية.

والآن، وكما هو الشأن بالنسبة لأية صناعة أخرىٰ في هذا العصر التكنولوجي العالمي، فإن مركز صناعة الثقافة الحديثة الحاملة للنموذج المعرفي المهيمن ولمناظيره، هو المجتمع عبر الأطلسي وأوروبا هي مهد "الغرب الثقافي"، وجذر ذلك النموذج.

ويشير هذا المفهوم إلىٰ خلاصة تراث انصهر في بوتقة العصور القديمة الإغريقية والرومانية الوثنية، مع مسحة إنجيلية مراوغة، وهو بالأحرىٰ نتاج جدليات صدر القرون الوسطىٰ وما بعدها، الذي شهد التحولات التي من رحمها ولد الغرب الحديث. وفي هذا المنظور الوليد، بات الفرق الأساسي المميز للوعي الحديث منصباً علىٰ التمييز بين الأصالة والمعاصرة، أو بالأحرىٰ بين العصر الحديث والعصر ما قبل الحديث. وأثمر هذا التصنيف فهمه الخاص للواقع.

ووفقاً لهذا الفهم الخاص، بات للمعرفة نوعان، **أولهما**: المعرفة التي تشكّلت بالتقاليد التي يلقنها كل جيل للجيل الذي يليه، وتنتقل عبر الأجيال، وتُبنىٰ علىٰ الثقة والإيمان. **وثانيهما**: المعرفة المنظور إليها علىٰ أنها عقلانية ومنهجية، والتي ينتجها العقل العلمي مقابل العقل الأسطوري. وجذر هذا النوع من المعرفة هو النزعة الشكوكية المتغذية علىٰ الشك.

إلا أن مفتاح التمييز بين عالمي هذين النوعين من المعرفة، لا يكمن في الفرضيات المتقابلة التي يقوم عليها هذا التصنيف. فقد تبين في نهاية المطاف، أن هذه الثنائية مجانبة للصواب، وأن الفرق بين هذين النوعين من المعرفة أدق مما كان متصوراً في البداية، ذلك أنه لا معرفة ممكنة دون عنصر من الإيمان والمسلّمات؛ فثمة علىٰ الدوام عنصر من اللايقين يدفع إلىٰ البحث، وليس الفضول فحسب. وبذا فإن السؤال الأكثر وجاهة الواجب طرحه، يكمن في التنقيب عن توجُّه

جامع بين الإيمان والشك يحدد وجهة البحث. ذلك أن تلك الدقائق المراوغة هي التي تعتم -بمرور الوقت- على المدركات، فلا تعود الإشكالية منصبة على ما إذا كانت معرفة الإنسان لنفسه هي الأولى بالدراسة، وإنما ما ينبغي أن تكون عليه محددات مسعى الإنسان لمعرفة نفسه.

وبذا تكمن العلامة الفارقة الرئيسة بين (الحديث) و(ما قبل الحديث) -على ما يبدو- في تحديد المركز الأساسي لكل منهما: هل المعرفة مستمدة من الإنسان أم من الله؟ هل وعي الإنسان بنفسه وبعالمه أَنَوي أم إلهي المركز؟ ما الذي يشكل الحقيقة الأخيرة التي يمكن معرفتها: هل هو العالم الطبيعي الدنيوي؟ أم عالم ما وراء الطبيعة؟ ما المصدر النهائي الصحيح للمعرفة الإنسانية؟ هل هو العقل أم الوحي؟ ما هي أدوات التثبت من صحة المعرفة بكل صنوفها؟ كيف تطورت تلك الأدوات؟. هذه عينة من حشد غفير من الأسئلة الجوهرية التي يمكن إثارتها، والتي تنطلق كلها من نقطة مشتركة هي: الحمولات الأولية لمجريات الفكر الإنساني.

واستناداً إلى النموذج المعرفي السائد يمكن تعريف **الحداثة** بأنها (التمركز حول الإنسان)، ومصدر هذا التمركز هو النزعة الإنسانية التي جرى إحياؤها إبان النهضة الإيطالية، وتطورت خصائصها الأساسية عبر عملية تخمُّر ثقافي، خلال ثلاثة قرون مضطربة، ووصلت ذروتها في حركة التنوير في القرن الثامن عشر، وترسخت ثمارها بالتعزيز المطّرد للمصفوفة المؤسسية للحداثة في كل أرجاء المجتمع، في عملية عُرفت في علم الاجتماع بالعقلنة التقدُّميّة، والتنويع لكل مناحي الحياة، والتحرر من الأوهام وعلمنة الثقافة.

وكانت أبرز نتيجة للحداثة هي التحول بمسألة القوامة والمسؤولية عن الحياة والموت من الإله إلى الإنسان، وارتبطت عملية التحوُّل هذه بتوجهات

متضاربة شتىٰ لتأليه الإنسان تارة، وتأليه الطبيعة تارة أخرىٰ؛ فكانت الصدارة مرة للنزعة الإنسانية، وأخرىٰ للنزعة الطبيعية.

وارتبطت محصّلة ذلك التضارب بفهم المسوغات المفترضة في الأغلب الأعم، فحيثما كانت الغلبة للنزعة المادية، وهي الأكثر شيوعاً، كانت الطبيعة تُقزَّم في بعدها المادي، ويتم اختزال الإنسان نفسه في بعده الجسدي.

ولا يغدو هناك مسوّغ عقلي يذكر للقول بأولوية ذلك الكائن الحي بتركيبه الكيميائي. ويصير علم الإنسان -علىٰ أحسن الفروض- علماً سلوكياً؛ إذ لا مسوغ يذكر في عالم صيغ هندسة السلوك المتصورة لعدم إخضاع سلوكه وردود فعله النفسية، بوصفه كائناً بيولوجياً، لقواعد المعمل والمصحة النفسية.

ووصل الأمر حدّ اعتقاد بعضهم أنه قد يمكن مع تقدم العلم، تفكيك الإنسان، ووضع كل جزء منه تحت المجهر، شأنه شأن كل الأشياء الطبيعية الأخرىٰ، واستيعابه في العقل والجسد الجمعيين اللذيْن يتشكل منهما المجتمع، الذي يمكن تصوره هو الآخر علىٰ نحو آلي وعضوي. فهو، بصرف النظر عن اقتراب معالجته، موضوعٌ لهندسة جماهيرية، قوامها: التلاعب به والتحكم فيه، سواء في كُلّيته أو في مكوناته. ومع تفكيك الإنسان واستيعابه في كيان جمعي مجرد علىٰ هذا النحو، يصير المجتمع كمقبرة للإنسانية، وتتلاشىٰ فرصة استعادة أي شيء له جوهر في الطبيعة.

والنتيجة التي تترتب علىٰ تطبيع الإنسان علىٰ هذا النحو هي مسخه، فقد بدأ العصر الحديث محتفياً بترويض الإنسان علىٰ قبول تصور خاطئ لأصله، وفق نزعة إنسانية مجانبة للصواب، علىٰ أمل استعادة روابطه مع الطبيعة، ومع عالم حياته الدنيوي، الذي هو مثابته الطبيعية التي عزل عنها علىٰ نحو مصطنع، فيما يبدو، علىٰ مدىٰ حقبة طويلة، بقيود سيقت جميعها علىٰ أنها مفروضة من الآلهة،

ورعتها على نحو صارم سلطة ادّعت القداسة، وتمثيل تلك الآلهة، والوساطة بين الإنسان وربه فيما يتعلق بمصيره. وقَبِل الإنسان هذا التغريب المفروض عليه عن الطبيعة وعن الدنيا، لأمد طويل بذريعة الخطيئة، والتكفير عن طبيعته الآثمة.

ومع زوال دعوى القداسة عن تلك السلطة الدينية، اجتاحت الساحة موجة جديدة من الأفكار الحاملة لبذور الشك في المعتقدات القديمة، وتسللت مدركات جديدة تشرّب الإنسان منها إحساساً زائفاً باستعادته لهويته ولعقله ولحيويته، على نحو توّج بموجة نشاط قُدّر لها أن تُشكّل، أو بالأحرى أن تعيد تشكيل العالم. وباستعادة " العصبيات "-على حد قول بيتر جي- ولد العصر الجديد.

ومع فقدان الثقة في الأوصياء، تَنحت الروح على نحو خفي، وبات الإنسان -أخيراً- حراً في إطلاق العنان لغرائزه المكبوتة، والاستمتاع الكامل برغباته ونزواته. (وغدا بوسع نيرسيوس أن يرى وجهه الحسن وسط زنبق البحيرة الجميل، ولأن يعزف أورفيوس على قيثارته لحنه الحزين في الظل، ولأن تبعث العنقاء من نار برومثيوس، ويهل ربيع ديونسيوس من جديد، وإن احتاج ذلك بلا ريب لفسحة زمنية مناسبة).

وفي الوقت نفسه، فإن إطلاق العنان للأهواء وللمبالغات التي شكّلت النهضة الإيطالية، كما وصفها مؤرخوها للأجيال القادمة، جرى تبريره في العصر التالي لها. وبدا في ذلك العصر أن التنفيس عن العقد النفسية المكبوتة، أفقد الإنسان توازنه مؤقتاً، في الوقت الذي ظن فيه أنه بصدد استعادة نفسه. بيد أنه من سنن الطبيعة بوصفها من خلق الله تعالى أن كل إسراف وانغماس يقتضي جزاء من نوعه، فالجائزة موضع الرهان صارت مهددة بالزوال قبل أن يحين أوانها. وقد عملت الكوابح والتوترات الطبيعية التي تكفل للحياة البقاء على كبح هذه الفورة الحماسية الجامحة، وتدشين منهجية جديدة، يعرف الإنسان في ظلها بالعقل والعاطفة معاً وعلى قدم المساواة، مع الحفاوة بالجمال جنباً إلى جنب مع القوة.

واكتشف الإنسان أن الحركة جزء من الحياة، شأنها شأن المجال الذي تتم فيه، وشرع الإنسان يبحث عن التاريخ، ويستكشف ماضيه. وساقته آماله إلىٰ البحث عن مستقبل بلا حدود، مع احتفائه بإحساسه المستعاد بعالمه وبحياته الدنيوية، وصاحب ذلك إحساس جديد بالثقة والجرأة التي تعززت باكتشافه لاتجاه التاريخ. فالتقدم ظاهر للعيان علىٰ أسس ملموسة، وأداته هي العلم.

وحوّل الإنسان بتوزعه بين أداة التقدم وحامله -العلم والتاريخ- إيمانه المراوغ بين النزعة العلمية والنزعة التاريخية، علىٰ نحو انتقائي، وصارت كل نزعة منهما -حسب الطلب- سلطة موثوقاً بها، وعقيدة تتنافس علىٰ ولاء العصر الحديث.

وتحالفت النزعة العلمية بالطبع مع النزعة المادية، في حين مثلت النزعة التاريخية ثمرة عقلية لسلطة زمنية ثابتة وحلولية، مما أسفر عن تولّد نزعة غنوصية جديدة. وهكذا تجذر الجهل وسط معرفة وافرة، وغطت علىٰ نور التنوير سحائب ظلام دامس؛ إذ وجد الإنسان نفسه وجهاً لوجه مع نفسه بوصفه: المجهول.

وتحت الوطأة المركبة لتلكما العقيدتين المتضاربتين، وغير القابلتين للتوافق، بكل معنىٰ الكلمة، خضع الإنسان لنوع جديد من الحتميات، أسلم به قياده لعملية مسخ لخليقته هو نفسه، فقد تمّ باطراد تهميش للإنسان من وضعية الخلافة المنوطة برسالة كونية، إلىٰ غمرة عمليات وقوىٰ خارج استطاعته، فهو حين يخذله العقل لا يجد مناصاً من أن يؤمن. وحين لا يكون بالإمكان التثبّت من ذلك الاعتقاد بأدوات التثبّت التي كيّف نفسه علىٰ الاعتماد عليها، يجد نفسه مطالباً بالتكيّف مع الثقة في مدركات غير مختبرة، يدرك تماماً أنّ لا أساس لها.

وهكذا، فإن عصر التمركز حول الإنسان الذي بدأ بوصف الإنسان مركزاً للكون، انتهىٰ ببطاقة طرد له، وبنزع تلك المركزية عنه، فحيثما يتوجه الإنسان يجد

نفسه مطارداً بأشباح جديدة من الاغتراب، وحائراً أمام منشور محطّم لعالم خالٍ من أي معنىٰ، يسير علىٰ شاكلة لولب هابط، يستدعي إعادة تفكيك البقية المتبقية منه. وفي وسط الوفرة نجد الإنسان المحروم، والمالك المستلَب.

ولا غرابة -في ضوء ذلك- أن تشهد نهاية القرن العشرين إطلاق سلسلة سخيفة من مقولات النهايات، تحسباً لرؤىٰ مشوشة، من بينها دعوىٰ نهاية التاريخ التي تشير إلىٰ حلول الألفية السعيدة، مع الخشية من أن تكون مجرد سراب بقيعة، وأن تكون حفلاً لن يوجد من يدعىٰ إليه. فقد طرح بعضهم مقولة (نهاية الإنسان) بين مؤيد ومعارض. وواكب ذلك الوصول إلىٰ مرحلة اللايقين والتكريس الأعمىٰ: عصر ما بعد الحداثة. وصدق الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩].

ومن هذا السياق، نبدأ البحث من جديد، ونستدعي عصراً جديداً يقوم علىٰ التذكُّر من رحم الزمن، من الماضي السحيق، علىٰ أمل إيقاظ الذاكرة، التي يمكن أن تنقذ الإنسان. ويتم ههنا تنشيط قطب المعرفة الذي تعرّض للتحقير والتجاهل لأمد طويل. فمع وصول نزعة تمركز الإنسان حول ذاته إلىٰ منتهاها، فإن من دواعي التفكير السديد أن يطرح هذا السؤال: ألم يأن الأوان للبحث عن معرفة الله؟ أما وقد استنفد الإنسان معياره دون طائل يذكر، فإن من دواعي العقل التسليم بأنه لم يعد في وسعه التمسك بدعواه (أنه مقياس لكل شيء).

وقد آن الأوان لوضع كل شيء في نصابه الصحيح، وتماماً كما أن ثمة مقياساً لكل شيء بما في ذلك الإنسان، فإن لكل شيء أواناً. ويهيب بنا صوت العقل الأثير الآن أن نقيم العدل، وأن نعلي الحق، فزمن ذلك آتٍ بلا ريب، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

ولا بد أن نضيف هنا أن الإحساس بذلك لم يسكت أبداً بالكُلية في الضمير الإنساني، فهو قد عبّر عن نفسه ببساطة بطرائق شتى؛ إذ حافظ على الذاكرة والإحساس بغلبة الحق على الباطل في نهاية المطاف. وبعضهم وجد التعبير عنه في التصوف، وبعضهم وجده في الاستشراق، وآخرون تلمّسوه في أعماق أنفسهم. وأينما وجد مصدره، فإنه ظل محفوظاً مثل صدى موجات هادرة منعزلة في صَدَفَةٍ، مقدر لها أن تُستَرَدّ مراراً وتكراراً من أعماق المحيط. والطريق لاستكشاف الرؤية الإسلامية للإنسان مليء بهذه الصدفات.

الإسلام مذكوراً

تعد عملية استكشاف الرؤية الإسلامية للإنسان وسيلة استعادة، وضبط لإيقاع صوت آتٍ من أعماق التاريخ الإنساني، هو صوت كل إنسان فرداً كان أم جماعة، عبر تجويده وتحسين قابليته لأن يسمع. وهو صوت الإنسان في بحثه عن وعيه الحقيقي، وعن جوهره ونفسه، وفق الفطرة التي فطره الله عليها.

ومن الأهمية بمكان أن يتجاوز هذا المسعى الدائرة الثقافية المباشرة، وكل آفاق التفكير الضيقة. ذلك أن حالة الحداثة بلغت من الانتشار في أرض الواقع حداً لم تترك معه متسعاً للتوسل بتلك الآصرة المحاصرة التي لا معول إلا عليها في البحث الأخلاقي الكوني.

فبالنسبة للمسلم، فإن هجمة الحداثة طالت تقاليده، وتركته وقد تقطعت به السبل في غياهب العصر ما بعد التقليدي مع حمولات كثير من التقاليد السابقة. وبالنسبة للغربيين، فقد تقدمت الحداثة على نفسها، وتركت أنصارها تلفُّهم الكآبة والحزن على أعتاب عصر ما بعد الحداثة. وفي حين تغيَّر العالم، بقيت بعض الأشياء على حالها.

ويكمن لُباب البحث في مصادر إسلامية عن تلك الضالة العالمية المنشودة، في الوعي بطبيعة تلك المصادر وبمكانتها في رسم مخطط لتاريخ الخلاص والتدبير الدنيوي؛ ذلك أن التاريخ الديني يتطابق -في منظور الإسلام- مع التاريخ التجريبي العالمي، فهو لا يقتصر على القديسين والأنبياء وعلى ما وراء الطبيعة، إلا أن ذلك التاريخ يتضمن في منظوره رؤية محددة للخليقة وللحياة والموت، يتبوأ الإنسان مكانة مرموقة فيها. وسنجلي ذلك هنا باختصار، على أن نستعرض خصوصياته في موضعها المناسب لاحقاً.

والصورة التي يطرحها هذا المنظور الإسلامي للمكانة المهمة للإنسان، لا تقدمه على أنه كائن مخلوق بنفسه ولا لنفسه، وترفض اعتبار الشيء في نفسه واحداً من فئات البشر بالمعنى الكانطي له، وتنفي تطور الجنس البشري. و على حد قول الأصفهاني فإن رسالة (الإنسان) تدرجه ضمن الكائنات المخلوقة، دون أن يكون لها سلطان عليه. ولكي يكون الإنسان اسماً على مسمى، يتعين أن لا يكون واقعاً في شراك الطبيعة أو تحت رحمة كون غير موات لرسالته، يكافح للخلاص منه ولتحقيق ذاته.

والإنسان المتولد من هذا التصور كائن علاقي يمثل في الكون ذروة الخليقة، وخلاصة جوهرها ذاته، وهو مخلوق يعيش وسط شبكة من علاقات الاعتماد المتبادل الحميدة المنسوجة من مداد الرحمة الربانية التي يتغذى عليها الكون كله. ويشكل عنصرُ الرحمة الربانية البنيةَ الملائمة والمكيفة للوضع، لقيام الإنسان برسالته المقدَّرة له في تلمس تحقيقه لذاته في رحلة ارتقاء مؤكَّد. وبفضل هذا النسيج بدقائقه وبنيته، يغدو الإنسان طليقاً غير مُتعثِّر ولا مقيَّد ولا مصفَّد في مشوار حياته، فهو باليقين ليس ذلك اليتيم الكوني المهجور في فضاء كون موحِش مترامي الأطراف.

وذلك الإنسان منحدر -في واقع الأمر- من صلب آدم، وهو أرقى مخلوق في الكون، وهو مكلف من البداية بمهمة قدَّرها له الله العليم القدير، ليؤديها في عالم صالح لحياته، ويشكّل مسرحاً ومادة مسخَّرة لقيامه بذلك التكليف الإلهي فيه، وهو ذاته كون حميد محكم من صنع الله تعالى الكريم رب العالمين مالك الملك والملكوت، وآية من آيات قدرته. وتكمن هنا الآصرة الأساسية المقدسة بين الإنسان وعالمه الذي مهّده الله له، واللاصق الذي يربطه بالكون، ويكفل له مكاناً فيه وعبره، بوصفه صورةً مصغرةً من كل، ومكلف فيه.

ويتوقف التناغم بين الإنسان والكون على تلك الحرمة، بما أن كلاً من الإنسان والكون من فيض ذات العلم والجود الربانيين، فكلاهما يستمد مكانته المرموقة من غاية ذات معنى، تتمثل بالنسبة للإنسان في التكريم والتكليف، وبالنسبة للكون في التسخير، وما العالم الدنيوي إلا واحد من عوالم كثيرة ممكنة، ومن علامات الرحمة والجود أن ذلك العالم صار تابعاً لمهمة الخلافة المسندة إلى الإنسان عبر هذا التسخير الإلهي.

وبالتناغم مع هذا الجود المقدر، أنعم الله تعالى على الإنسان بملكات أُبدعت وهُيئت لتعزيز قدراته، وكفالة استطاعته القيام برسالته الدنيوية، وتتصدر تلك الملكات ملكة المعرفة والفعل، وعماد هذا التقدير والجود الربانيين هو تمكُّن الإنسان من اكتساب المعرفة، والتصرف على ضوئها في آن واحد. فمن دون الثقافة ما كان الإنسان ليقدر على أن يتجاوز قدرة الحيوانات التي تشاطره مأواه الأرضي، ولا أن يرتقي على كثير من غرائزه، بيد أن الثقافة لا تعدو -في المنظور الإسلامي- أن تكون عنصر تأهيل غير قابل للبقاء ما لم تُستدع بوصلتها وجوهرها الموحى بها في الشريعة. فجوهر الثقافة متضمن في العلاقة بين العقل والوحي، والتوكيد على توازن الإنسان وفلاحه في القيام برسالته الدنيوية، وضمانة خلافته دالة في هذه العلاقة.(1)

وعلى مستوى أساسي أهم، فإنه لولا قدرة الإنسان على التزامن بين معرفته وعمله، وبين العقل والعلم والعمل، لما انبثقت الحضارة كما عرفناها على مدى التاريخ الإنساني المكتوب من ذلك المدى الفسيح، وغير المتباين من الخلق.

---

(1) كما يقول الغزالي في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد": "فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والآذاء. ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء. فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء. فالمُعرِض عن العقل مكتفياً بنور القرآن، مثاله المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور". ولا تزال السمة المميزة للفكر الإسلامي حتى هذا العصر مرتبطة بالحوار المتعلق بضبط العلاقة بين الوحي والعقل. انظر:

- النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين العقل والوحي، بحث في جدلية النص والعقل والواقع**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م، ص٣.

وتقود الإنسان في مسار تحقيقه للغاية التي خلقه الله من أجلها مَلَكتان: **الأولىٰ** مكفولة بفضل عقل عملي، وتواصلي يتوج وسائط المعرفة المتاحة، ويتوسط بينها ويحكم عليها. وتكمن **الثانية** في الميل الفطري في النفس إلىٰ الكشف وبذل الجهد، لترك بصمة علىٰ الواقع بالفعل، وبالإمساك عن الفعل، وهذه هي النفس التي تمثل المستقر والمثابة للإرادة التي هي أساس الميل للاختيار بين الفعل وعدم الفعل، فالنفس كما سنرىٰ هنا هي ذاك العامل النشط القادر علىٰ الريادة والكبح، والمسؤول في نهاية المطاف عن القلق الجواني أو السكينة الجوانية للإنسان.

والإنسان -من هذا المنظور- قادر علىٰ التفكير العقلاني. وهو من ثَمَّ كائن عاقل في المقام الأول، وحواسه متكيفة مع عالم أنيط به إعماره، وهو في الوقت ذاته كائن أخلاقي، وأخلاقيته مشروطة بقدرته علىٰ الاختيار، والاختيار يفترض تشعُّب الطرق مما يستدعي استجابة متأنية مركوزة في القدرة علىٰ الإدراك والتمييز، ومحور هذا الاختيار هو احترام شروط الميثاق الأساسي المعقود بين الإنسان وخالقه. يقول الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

ومن الأهمية بمكان للتنقيب في قصة الإنسان، أن نتذكر هذا الحدث الأصلي، لتعرّف ملكاته، ورسم خارطة لمساره الدنيوي. ويصعب دون الإلمام بهذا الميثاق والرجوع إليه، الحديث عن مهمة أو عن غاية للخلق، وعن معنىٰ للإنسان في هذا العالم.[١]

وقد يكون من المحبط إيجاز ما هو موجز أصلاً؛ إذ إنه يترك كثيراً من الفجوات، ويثير لفيفاً من التساؤلات. وقد يسلم المرء بالمقدمات فحسب، ولا

(١) ستتعرض لقصة خلق آدم لاحقاً.

تجذبه الحجة ويؤجل قبولها. وتشمل المقدمات المنطقية التي يمكن طرحها في هذا المقام المقدمتين الآتيتين: (١) التذكرة برسالة الإنسان بوصفها محددة للغاية في حياته المؤقتة في هذه الحياة الدنيا. (٢) كون تلك الرسالة متضمنة في ميثاق تأسيسي يحدد شروط القيام بها. وهنا تبدأ التساؤلات: من أين يتسنىٰ لنا معرفة شروط هذا الميثاق؟ وفي زحمة الصعوبات الجمة لهذا العالم قد ينسىٰ المرء تلك الشروط، فأين يمكنه أن يولّي وجهه ليتذكّرها؟ والتذكُّر هو النظير المتمّم للنسيان، والإنسان مزود بالقابلية لكليهما، وهكذا تتتابع تلك التساؤلات التأمُّلية.

وعلينا أن نتذكر هنا أنه من المتوقع أن يتصرف الفرد المتدبّر بوعي كامل، غير محتجّ بجهل طارئ بتلك الأساسيات أو بفتور الوعي بها. فالإنسان مزوّد بميل للتعلُّم لا يستطيع معه أن يزيل أثر التعلُّم ولا الوعي. وهو، بوصفه خليفة، حرٌّ قادر علىٰ التفكير مسبقاً، وعلىٰ تقدير عواقب عمله، وهو محاسب علىٰ اختياراته ومجزي بها. وهو، بوصفه كائناً متدبراً وصاحب إرادة، أهلٌ للمسؤولية وللمحاسبة عليها، وهو بحاجة إلىٰ تأهيله للقيام بتلك المهمة.

وفي هذا السياق، يجلّي الله تعالىٰ أمام بصائر عقولنا ذلك الحدث النبيل، المتعلق بحمل الإنسان للأمانة بأبلغ بيان.[1] يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ

(١) يربط يوسف علي بين هذه الآية الكريمة والميثاق أو العهد الذي أخذه الله تعالىٰ علىٰ بني آدم، والمذكور في قوله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]. والعهد المأخوذ علىٰ المستوىٰ التاريخي علىٰ بني إسرائيل، والذي يرمز إلىٰ عهد بين الله وأمة مؤمنة أهل كتاب. فسورة الأحزاب التي وردت بها تلك الآية تتضمن عهداً والتزامات مترتبة عليه بما يؤكد تلك العلاقة، وورد فيها ذكر الميثاق مع الأنبياء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾ [الأحزاب: ٧-٨]، وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩-٤٠]. وورد علىٰ نحو ضمني مع اتّباع الرسل=

عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وتعني الأمانة عند الزمخشري: العقل والإرادة. وجوهرها عند القرطبي: الفرائض أو المسؤولية الأخلاقية. وجماعها هو مهمة الخلافة، مع الإشارة إلىٰ الظلم، والجهالة التي ينزع إليهما جُلُّ البشر رجالاً ونساء.(١)

فلنتدبر هذه الآيات الكريمة، يقول الله تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الشعراء: ٦٧]. وتكررت في السورة ذاتها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الشعراء: ١٠٣]. و يقول في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]. ويقول في سورة المؤمنون: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧٠-٧١].

فمعنىٰ ظلم الإنسان وجهالته هو الإخفاق في الارتقاء لمستوىٰ تلك المسؤولية الأخلاقية، ليس لنقص في مؤهلاته للقيام بها، بل بسبب نوازعه. والإنسان، وفق هذا التصور، وجد لمهمة ولمصير. وبوسعنا التدبر في الخواص التي تؤهله للقيام بتلك المهمة، والتي تزودنا بمفهوم محوري له بوصفه كائناً متكاملاً مخلوقاً علىٰ صورة كاملة؛ جوهرها التوازن، وموضوع اختباره هو

=والمؤمنين رجالاً ونساء بوجه عام في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥]، و في حق من صدقوا الله في أداء تلك الأمانة، المفارقين لمن خانوها ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣].

(١) إذا عددنا الإيمان بالله هو بداية الأخلاقية، فإنه يتبين لنا مضامين هذا الحكم علىٰ الإنسان بكونه ظلوماً جهولاً.

الحفاظ على ذلك التوازن. ويشمل زاده المعرفي أدوات مثل: الذاكرة والعقل والحواس والحدس، بينما تشمل ميوله العاطفية مجموعة من المحفزات والدوافع تشمل: البواعث والعواطف والرغبة والضمير. وتتأكد تلك التركيبة بملاحظة كون الإنسان خليفة عاقلاً نشطاً يعيش في هذا العالم الدنيوي، ويؤكد هذا كلّه على حاجته للنظر فيما وراء هذا العالم في تحديد شروط سعيه، والغاية من حياته المؤقتة في هذه الحياة الدنيا.

ومن منظور معرفي توحيدي،[1] فإن شروط بحث الإنسان عن نفسه قد تم تأطيرها على نحو مسبب بالفعل، يفترض رسم خطوط رؤية عالمية لفاعل وهدف، ولدور ووجهة، لمسيرة لا يمكن عقلياً اعتراضها في منتصف الطريق على نحو جلي في أية محاولة جادة لفهمها، دون معرفة مسبقة لشيء عن بدايتها ونهايتها.

ويفترض هذا النهج من التفكير قدراً من المعرفة بماهية الإنسان أو على أقل تقدير أن يكون بمستطاع الإنسان معرفة غايته تلك بنفسه، وأن يكون مقياس تلك المعرفة بالنفس إلزامياً، وليس محلَّ اختيار، ولا قاصراً على قلة من البشر.

وطبعت المقولة الدلفية (اعرف نفسك)[2] هذه الحكمة الأولية في سجلات العقل الإنساني، وبذا صار الغرب طرفاً فيما عرفه الشرق من أمد طويل، إلا

---

(١) نحتنا هذا المفهوم في محاولة منا لبيان وإعادة صياغة أساسيات رؤية إسلامية، قد تساهم في تطوير النظرية الاجتماعية المعاصرة في اتجاه أكثر تمشياً مع المتطلبات الإنسانية والاجتماعية للعصر الحديث. وهو منظور مقابل للمنظور الإنساني المادي المتمركز حول الذات الذي يستلهمه النموذج المعرفي الغربي السائد، والنابع من الروح الوضعية للتنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر. انظر:

- أبو الفضل، منى. "الأسلمة كقوة للتجديد الثقافي العالمي"، **المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية**، عدد سبتمبر ١٩٨٨م.

- أبو الفضل، منى. "المنظورات المعرفية المتقابلة: التوحيد، الرسالية، النظرية الاجتماعية المعاصرة"، **المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية**، عدد مارس ١٩٩٠م.

(٢) جوهر هذه المقولة هو: اعرف نفسك أيها الإنسان تعرف كل شيء آخر في الكون (المترجم).

أنه بينما ظلت الغاية من معرفة الإنسان نفسه موضع غموض كبير في الأدبيات الغربية، فإن هذا النموذج المعرفي الإسلامي يجلّي تلك الغاية على نحو لا لَبْس فيه، فمعرفة الإنسان نفسَه هي نقطة البداية وليست النهاية.

هي بتعبير آخر، بداية الطريق والشرط المسبق لمعرفة الله تعالى، بوصفه الحق المبين المطلق في عالم معرفة لا موضع فيه للشك في وحدانية الله، واختلافه الكامل عن العوالم التي خلقها.

فالإنسان بحاجة لمعرفة شيء عن نفسه، لكي يتصرَّف على نحو مسؤول، وينعم بظلال من اليقين بخصوص الأسس التي تقوم عليها معرفته، فلنبين بإيجاز كيف فهمت تلك الغاية، ومراقي تلك المعرفة في الفكر الإسلامي. وعلى الرغم من الفروق التقليدية بين المتصوفين والمتكلمين، وبين الفلاسفة والمفسرين والمتكلمة، فإن بالإمكان الوقوف على قواسم مشتركة تتعلق بمعنى جامع بينهم.

ولنعد بهذه المناسبة إلى الأصفهاني، لنرى كيف صنَّف مراتب المعرفة في الفكر الإسلامي، فهو يرى أن ثمة (تصوراً عاماً) تشترك فيه الأغلبية العريضة من البشر الأسوياء، ويلي ذلك مرتقى من ثلاثة مستويات، يبدأ من غلبة الظن إلى علم اليقين، ثم أخيراً إلى عين اليقين؛ فالمستوى الأول يقوم على رأي مؤسَس على دليل ظرفي. ويمثل المستوى الثاني درجة أعلى من المعرفة اليقينية على سلم المعرفة التي يمكن التثبُّت من صحتها، والمستوى الثالث هو المنتهى، وبه يتم الوصول إلى أعلى درجة من الشفافية في اختراق الحجب بعين اليقين. وفي عالم من العلاقات المتبادلة الحميدة، لا يتغذى فيه الإنسان على وَهْم استقلال ذاتي لا محل له، يمكن الوصول إلى اليقين دون التحمُّل بالمضامين المبتدعة للغنوصية المخشيّ منها في التقاليد الثقافية الأخرى.(١)

---

(١) حول تفسير للتاريخ المسيحي على هذا النهج راجع إريك فويجيلن أو كارل لويث.

ويكفل تأسيس المعرفة على عنصر اليقين، الحجة لمعتقدات المرء التي تُشكِّل أساس أعماله. ومع ذلك، فإن الفجوة بين التصور العام والمعتقدات التي لا برهان عليها، والتدرج التصاعدي لليقين، لا يمكن تجسيرها بالعقل الإنساني المكتفي بذاته. فما المصدر الذي يمكن اللجوء إليه لتحصيل هذه المعرفة؟ وكيف يستطيع المرء معرفة أن ما يعرفه صحيح، ويمكن التعويل عليه، ويشكل أساساً صالحاً بالنسبة له وللعالم الذي يعيش فيه؟ وباختصار كيف يتسنى للمرء التمييز بين المعرفة والرأي؟ وكيف يتسنى له أن يميز بين الحق والباطل؟.

وهكذا تتدحرج الكرة في طريق سقراطي في كهف مجازي، لم تصل فيه إلى هدفها بعد إلى يومنا هذا، في عصر يتباهى بعقلانيته الليبرالية. وليتحقق ذلك، نحتاج إلى إعادة النظر في شروط المشروع الفكري، فالبحث عن الميثاق والرسالة هو الهدف المشروع لكل رجل وامرأة في العصر الحديث. ومن غير الممكن الشروع فيه في غيبة الوحي الإلهي المنزل، مع ملاحظة أن كل وحي منزل سابق على تنزُّل القرآن لم يحتفظ بموثوقيته التاريخية التي تؤهّله لتقديم إجابات لا لبس فيها.

ولا يحتاج الإنسان إلى التنقيب قبل الإسلام عن مثل تلك الإجابات البيّنات، ليس بالنسبة للميثاق وللغاية من خلق الإنسان فحسب، بل بالنسبة لمجموعة من الأسئلة الحيوية المتعلقة بتكريم بني آدم وهبوطه إلى الأرض. ويمهد المدى الذي أجيب به عن تلك الأسئلة، وشمولها، وجلائها، الطريق أمام التحاور مع الرؤية الإسلامية للإنسان، وهذا القول ليس بغير دليل.

فلنناقش هنا مسألة السبب في أن معرفة الإنسان تقتضي مثل ذلك الشمول للمعرفة بالمعنى الشَّرْطي للكلمة، ونحاول تسكينها في سياق من نوعها.

فالأسئلة الوجودية أسئلة تأسيسية في المنظور التوحيدي، وهي بهذه الصفة غير متروكة لمخاطر ومحن التجربة والخطأ، وهذا الفهم جزء لا يتجزأ من الرحمة

التي فطر الله الخليقة عليها. وتأسيساً على ذلك، فإن الإجابة عن سؤال: من هو الإنسان؟ لم تترك لرجم الإنسان بالغيب، ولتلعثمه في مسابقة أوليمبية، وسيلة قاسية لقياس قدرته على التحمل، ولا هي اختبار لمعرفة مقدرة للإنسان في مجال محدد بالاختصاص المخول به، وداخل في نطاق استطاعته. والحق أن الطموح الإنساني قد يتعدى حدوده بما يجعله يأتي بنتيجة مغايرة لما يصبو إليه.

ويمكن فيما وراء التصورات الإنسانية المجهدة، رؤية العالم على أنه مسرح متعدد الطبقات، له أعماق يستحيل سبر أغوارها، تهيب بالإنسان أن يسعى صوب المطلق. إلا أن العالم الذي يعيش فيه، والذي هو مسرح هذا السعي، متناهٍ. وهو يصير بتلك الصفة واحداً من بين عوالم أخرى، متكيّفاً في نهاية المطاف بتركيبة خلقها الله تعالى بَقَدر. وهو منظور إليه على هذا النحو، يمثل الموضع الكُفْء الذي اختار الله تعالى الإنسان فيه من بين سائر المخلوقات لرسالة اختصه بها، واصطفاه لها.

وقدَّر الله تعالى للإنسان، علاوة على ذلك، في حياته الدنيوية دورة ترجح فيها كفة تجربته على كفة خبرته، وتساوي الأخيرة البراعة الفنية، وتتمايز عن مجال الإمكان التجريبي، على ضوء التكوين المختلط والفطري للإنسان غير المقتصر على بنيته الجسدية. والبراعة الفنية -بحكم تعريفها - يمكن تحصيلها فحسب في مجال من نوعها، مثل عالم الطبيعة.

وفي سياق انتقائية متبناة ومكيفة (مختلفة تماماً عن نظرية النشوء والتطور الحديثة التي تطرح مقولة التكيف الانتقائي العشوائي)، فإن الخلافة الإنسانية تتحدد على نحو إرشادي، وليس على نحو تحريمي فحسب.

وقد يبدو من المفارقات أن الإنسان مزوّد بمكنات التعامل الفعال مع الكون الطبيعي، أكثر مما هو مؤهل لفهم نفسه. إلا أنه لا غرابة في ذلك، ففي كونٍ فطره الله تعالى على نحو يكون فيه مسخّراً في خدمة رسالة الإنسان على الأرض،

فإن البراعة مسألة محتملة، وليست ضرورة. ويقتضي احتمال تحققها -ضمناً- بيئة حميمة ونامية ومتفاعلة من الرحمة والعرفان بالفضل لله تعالىٰ.

وتستبطن تلك البيئة دينامية للحياة، متكيفة مع جدليات التقاطبات السلبية والإيجابية للخليقة. وهي، علاوة علىٰ ذلك، دالة في مبدأ الزوجية الخيّرة المتأصل في الخليقة من جهة، والذي هو ساحة لتنشيط قوىٰ دفع كل منها للآخر من جهة أخرىٰ: مبدأ الزوجية ومبدأ الدافعية.(١)

ولم يكن هذان المبدآن مجهولين بشكل أو بآخر في التقاليد الثقافية الأخرىٰ، وتؤشر هذه الملاحظة علىٰ وجود أكثر من رؤية عالمية واحدة، ضمن دعامات الحكمة الإنسانية الأصلية. ومن ثمَّ فهي شهادة علىٰ عالمية الوحي الإلهي المنزّل. وفي ظل هذا التصور يمثل الإنسان والكون قطبين متقابلين، بيد أن هذا التصوّر لعدم الاستمرارية الوظيفية أو للاستقلال الذاتي للكون مقصور علىٰ مستوىٰ واحد من مستويات تحليل العلاقة بينه وبين الإنسان.

---

(١) حول مبدأ الزوجية بوصفها سُنّة وخاصية مميزة للخليقة، تدبر في الآيات القرآنية الآتية علىٰ سبيل المثال، يقول الله تعالىٰ في سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦]. ويقول في سورة الزخرف: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الزخرف: ١٢]. ويقول في سورة الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]. وفيما يتعلق بمبدأ الدفع بوصفه طاقة رد مقابلة تكفل التوازن العام، ضمن منظور شامل ونهائي للحق والعدل، تدبر في قول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٠-٢٥١]. وقوله سبحانه وتعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. وقوله في سورة الأنبياء: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]. وقوله سبحانه وتعالىٰ في سورة الحج: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٣٩-٤١].

وكما سنرىٰ لاحقاً، فإن ثمة استمرارية عضوية للعلاقة بين الإنسان وبيئته علىٰ مستوىٰ تحليلي آخر، وسواء نظرنا إليهما من بُعد أو من آخر، فإن بؤرة التركيز هي التأكيد علىٰ توترات علاقة تكاملية، وليس علاقة عداء في بيئة تقوم علىٰ التعمير، ولا علىٰ السَّلب.

وفي دينامية السبب الأول للحياة المقدرة أزلاً، توجد حدود للمدىٰ الذي بوسع الإنسان أن يذهب إليه في استكشاف كل من: كنه نفسه، وتلك القطعة اليسيرة من الكون التي هي الأرض التي يعيش عليها. وحقيقة الأمر أن بوسعه أن يعرف الكثير عن نفسه بدرجة من الاعتماد علىٰ النفس، وعلىٰ ملكة النقد. ويمكنه التثبت من معظم تلك المعرفة المكتسبة بالتجربة أو بغيرها، في حدود كونه جزءاً من العالم الطبيعي. أما فيما هو وراء ذلك، فإنه لا يستطيع إلا إطلاق العنان لخياله، والانخراط في افتراضات لا يمكن التثبت من صحتها، ومثل هذه التسلية محفوفة بالمخاطر.

فالتخمين قد يملأ فراغ نفس مستلَبة أو مقهورة روحياً في رحلة طويلة ويائسة عبر المجهول، إلا أنه يظل ممارسة مريبة إلىٰ حد كبير في رحلة لا تحتاج بالضرورة لأن تكون ميؤوساً منها علىٰ هذا النحو، وفي فضاء من الممكن معرفة أساسياته. بيد أن استعارة الرحلة اليائسة مغروسة في نص عقل جماعي وأولي انطبعت فيه من عصور سحيقة؛ فالصوفيون يتحدثون عن رحلة من عالم الفناء إلىٰ عالم البقاء. واعتاد الفكر التوراتي أن يحدد بداية تلك الرحلة الشاقة بحدث جد خطير يصفه بالسقوط.

ويشير نظيره في الرؤية الإسلامية إلىٰ الخروج من الجنة، والذي ينظر إليه بوصفه حدثاً مقدراً سلفاً وضرورياً، مع كونه يبدأ بقول الله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[البقرة: ٣٦]، وقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا

خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤].

وليس الإخراج من الجنة علامة على الحط من قدر الإنسان وهجره، بل هو بداية رحلة مؤقتة على الأرض، محفوفة بآيات ربانية يتشكّل الفلاح فيها بمحدداتها، بوصفها رحلة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

والقرآن هو صاحب القول الفصل في الاختلاف في تأويل هذا الحدث الكوني الأساسي الوارد أيضاً في غيره من الكتب السماوية المنزلة؛ ذلك أن تفصيلات بداية تلك الرحلة ذات أهمية خاصة، ليس بالنسبة للبرهنة على أساسيات الحياة الدنيا بوصفها ممراً مؤقتاً فحسب، بل لتطهير ضمير الإنسان، وإثبات أهليته في عالم اكتنف الغموض وجوده فيه، من جراء جهالة الإنسان وظلمه لجنسه الذي ينتمي إليه. فلنتمهل قليلاً، لنفسر جوهر هذا الاستغراق فيما لا محل له.

وتواجهنا من بداية قصة آدم حقيقة أن كل شيء في الخليقة استعدَّ برهبة، تحسّباً لحدث جليل أعلنه الله تعالى في الملأ الأعلى لملائكته، فحواه أنه سبحانه جاعل في الأرض خليفة، أهّله بخصالٍ تمكّنه من القيام بالمهمة التي كُلّف بها.

ولكون الملائكة مخلوقات نورانية، ولديهم معرفة مسبقة لشفافيتهم، فإنهم استشعروا القلق من إمكانية أن يحدث ذلك المخلوق فساداً كبيراً في الأرض، إلا أنهم لم يكونوا يرون غير جزء واحد من الصورة، ولا يستطيعون أن يروا الصورة بكاملها.

وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم، فاستجابوا جميعهم لأمر الله تعالى، إلا مخلوقاً واحداً وُجد بينهم في لحظة اتخاذ ذلك القرار الجليل، وإن لم يكن منهم، وهو إبليس، الذي يشار إليه في الفكر التوراتي بالملك الساقط.[1] والحقيقة أنه كما

(١) كان إبليس يماثل الملائكة في الصلاح والعبادة، ولكنه سقط بمعصيته أمر ربه له بالسجود مع الملائكة لآدم. (المترجم).

بين القرآن الكريم من جنس آخر غير الملائكة، من عوالم الخليقة المتعددة، مخلوق من نار ومزود بملكات خاصة به، تشمل إرادة مستقلة، وقدرة محدودة يعمل في حدودها في مجاله الخاص.(١)

وهذا النوع من المخلوقات هو الجن، وهم شأنهم شأن ذرية آدم منهم الصالحون ومنهم الطالحون، وإبليس كان من الغاوين. وتتضمن قصة آدم هذه كما يبينها القرآن الكريم شيئاً عن العلاقة بين آدم وذريته وإبليس وحزبه، وهي علاقة قرب بالضرورة.

فمن بداية البداية كان إبليس رمزاً، وأداة للغواية والتلبيس في حياة الإنسان، وفي قيامه بمهمته بوصفه خليفة في الأرض. ومن الشواهد القرآنية على ذلك، قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ [الإسراء: ٥٣]، وقوله جلَّ وعلا في سورة طه: ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: ١١٧].

وسيبدو من تلك البداية إلى أن تقوم الساعة، أنه طالما كان هناك إنسان، فإن هناك إمكانية للشر وللتمرد والتحدي والتكبر والفساد؛ فبذور زعزعة السلام

---

(١) من ثوابت الإيمان أن القوة جميعاً بيد الله تعالى، وأنه لا يوجد شيء في الأرض، ولا في السماء يمكن أن ينفع الإنسان أو يضره بمثقال ذرة بغير إرادة الله. يقول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧﴾ [الأنعام: ١٧]. ويقول سبحانه في سورة يونس: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧]. ويقول جل في علاه في سورة النحل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ [النحل: ٥٣]. وهذا هو أحد جوانب بواعث الحرية التوحيدية للضمير الفردي، وللمعنى الإيجابي للتوكل على الله وحده لا شريك له.

العقلي للإنسان، وفرص السلام والمودة على الأرض بذرت من لحظة رفض إبليس الامتثال لأمر ربه بالسجود مع الملائكة لآدم. يقول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، ويقول سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١١-١٢].

ومن تلك اللحظة، حلّت لعنة الله تعالىٰ على إبليس (وليس على الإنسان)؛ إذ طُرد من رحمة الله إلىٰ يوم الدين. يقول الله تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٣-٣٥]. ومن حينها صار الشيطان عدواً معلناً للإنسان بزعم عدم استحقاقه التفضيل عليه، لكونه مخلوقاً من نار، بينما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون.

ويبين القرآن الكريم ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢-١٨]، وقوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

وهكذا، فمنذ هبوط الإنسان من جنات عدن، مستقر الإنسان قبل تاريخه وإعداده لمهمة خلافته علىٰ الأرض، فإن مجيئه إلىٰ هذه الحياة الدنيا صاحبته بحق تلك العداوة والشقاق، إلا أن ذلك لم يكن قضاء وقدراً علىٰ آدم، فقد خلق آدم لمهمة نبيلة. والأرض ليست ساحة المطهر،[1] ولكنها مسرح لاختبار ارتقاء لبني آدم، وهي من ثَمّ موضع للفلاح وللمِحَن.

وكان نسيان آدم وحواء أمام غواية إبليس ووعوده المزيفة درساً حيوياً، وتحذيراً مبيناً يذكرهما بما يحتاجان للإنصات إليه، وما يحتاجان للحذر منه، في القيام برسالتهما المقدرة في هذه الحياة الدنيا. وكان، علاوة علىٰ ذلك، درساً في التوبة والأوبة الخالصة إلىٰ الله من جانب بني الإنسان، الذين هم رغم كل مناقبهم المكتسبة بالتعلّم، وما حباهم به الله من خصال، يظلون عرضة لضعفهم الإنساني، وهو درس، من جهة أخرىٰ، علىٰ مغفرة الله وسعة رحمته، التي كتبها سبحانه وتعالىٰ لكل من يسعون إليها بإخلاص.

وخلاصة القول، فإنّ درس هبوط آدم وحواء إلىٰ الأرض -في الرؤية الإسلامية- هو درس في استعادة الرشد بكل ما تحمله الكلمة من معنىٰ: استعادة الوعي، والعزيمة، والنعمة، والقبول. وهو أيضاً اكتشاف الطريق للأمن فيما لو حدث انحراف عن جادته، ولضمان العودة إلىٰ الصراط المستقيم، ولاستعادة العزيمة التي أعادت آدم إلىٰ فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها بتمامها، وهذا سيكون هو المِنَّة وميراث الرحمة الربانية للأجيال التي تأتي من بعده.

وفي مسار الحياة الدنيا، يظل الإنسان المخلوق الذي اختاره ربه وكرّمه، في فلك الرحمة الربانية الحافظة له، طالما التزم بالهدي الذي وعده ربه بأن يرسله

(١) المراد بذلك أنها ليست ساحة لعقابه علىٰ ما يسمىٰ الخطيئة الأصلية لآدم، وتطهيره منها. (المترجم).

إليه. يقول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩]. ويقول سبحانه في سورة طه: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].(١)

ويأخذ الهدي شكل بصيص من نور، ومعياراً أو تذكرة، ودعوة، وإبراء وشفاء، وتبصرة منيرة، وكتاباً، يبين شروط الميثاق بين الله والإنسان، ويجلّي ويرشد إلىٰ الطريق الواجب السير فيه، لأداء الأمانة والرسالة التي وجد الإنسان من أجل القيام بها في هذا العالم. ويأتي ذلك الهدي عبر أناس من البشر اصطفاهم الله وأعدهم لتلقّي الوحي المنزل، وتبليغه لبقية البشر، وهم الأنبياء والمرسلون الذين يُرسَلون إلىٰ أقوامهم مبشّرين ومنذرين، ونماذج حية للأسوة، وهداة علىٰ الطريق إلىٰ الله.

---

(١) وفي ضوء ذلك، يؤكد علم الإنسان الإسلامي علىٰ عالمية الهدي الرباني وشموله لكل بني الإنسان، وعلىٰ أن التوحيد هو الحالة الأصلية التي كان عليها الإنسان، ليس من منظور حالة الفطرة التي فطر الله الناس عليها فحسب، بل من منظور تاريخي. ويصدق ذلك، سواء أتىٰ ذلك الهدي في صورة نذير لكل أمة، يقول الله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ [الفرقان: ٥١]، أم كان جلياً في ضمير الإنسان، وفي الفطرة، وفي الوحي المنزل كما يقول يوسف علي أو كما يقول محمد أسد. ويتأكد البعد الأخير بإشارة خاصة لختم النبوات ولعالمية الوحي القرآني وقيوميته وهيمنته إلىٰ يوم الدين. والنقطة الجديرة بالإبراز هنا أن الابتلاء والجزاء مرتبطان بإعلان الهدي وإرسال الرسل المنذرين. يقول الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٩٤]. ويقول في سورة الشعراء: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٨]. والتوحيد يعلمنا التناغم لا التنافر، سواء تعلق الأمر بالطبيعة والميثاق أو بالفرد والمجتمع أو بالعرقيات والأنساق الجمعية المتنوعة.

في حين أن بني الإنسان -ذكورهم وإناثهم- هم بشكل عام، الخليقة التي فضلها الله علىٰ سائر المخلوقات، فإن الأنبياء يمثلون خياراً من خيار، فَهُم المصطفون لمهمة محددة، هي تذكرة إخوانهم من البشر بتكريم الله لهم وشروط حملهم للأمانة، وهم مجرد مبشرين ومنذرين، ليسوا بمسيطرين علىٰ من يدعونهم إلىٰ الهدىٰ، ولا مخولين بإكراههم عليه. فالحرية ميزة بحد ذاتها، مثلها مثل القدرة علىٰ تمييز الدعوة، وتبين الصواب من الخطأ والحق من الباطل، وما يتبقىٰ هو تحمّل الإنسان بأخلاقية حريته أو تحمّل الابتلاء بها.

وفي نطاق تلك الرحمة الربانية، تقتصر سلطة الشيطان علىٰ أولئك الذين يهجرون الهدي الإلهي عن عمد، والذين يصيرون باستخفافهم به ونسيانهم له، ضحية سهلة لمكائده. يقول الله تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ٤٢﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

هذا بيان موجز للأصول الوجودية، التي بلّغَنا بها الله تعالىٰ عبر الأنبياء والكتب المنزّلة من مصدر المعرفة الصحيحة. وبوسعنا أن نتتبع تفصيلاتها عبر دراسة منهجية للآيات -السابق الإشارة إليها- في سياقها الكلي الواحد؛ فهي تزودنا بوصف شامل يستمد صحته من وروده في القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بوصفه الكتاب الرباني الخاتم، والذي هو بصفته ذلك المصدر الذي يمكن منه معرفة الرؤية الإسلامية للإنسان.

وهذا البيان يصحح السجل الإنساني، ليس بتخليصه من مقولة طبيعة آدم التي هَوَت بعد الخطيئة،[١] وتخليصه من وصمة خطيئة أصلية انتقلت إلىٰ ذريته

(١) المراد بذلك أن الإنسان سقط من مقام التكريم الرباني بارتكاب أبويه الخطيئة، وأصبح عاجزاً عن تخليص نفسه منها بنفسه، ومن ثمَّ احتاج كل إنسان من ذريتهما إلىٰ مخلص. (المترجم).

فحسب، بل إنه وعلىٰ ذات الدرجة من الأهمية يبرئ حواء من أية وصمة تواطؤ في ذلك السقوط.

ومن هنا، فإن قصة الخلق، والرسالة، والميثاق، والابتلاء، وجوانب القوة والضعف في الإنسان، والتكريم والإخزاء، يأتون في القرآن في سياق مشترك يشمل آدم وحواء من البداية إلىٰ النهاية، ولهذه الزوجية والهوية الوجودية مضامينها الأخلاقية كما سنبين لاحقاً. وكل ما هو عدا هذا البيان القرآني تخرصات فحسب.

وما دام الإنسان مخلوقاً لرسالة، فإن تخرصات الفلاسفة حول موضوع الإنسان، وإن حسنت نواياها، لا يمكن إلا أن تكون أرضية، وموضعاً عفناً لتوليد أوهام لا طائل من ورائها. فهي تغذي لدىٰ أغلبية من ينخرطون فيها من الرجال والنساء ذهنية المقامرة، التي تصير الحياة معها رهاناً فحسب. وقد لا ينجو في ظلها غير القلة في شعاب الكشف الصوفي في اللحظة الأخيرة من سخطهم عليها.

وينتهي كثيرون ممن نذروا أنفسهم لتلك الكهانة، في الأغلب الأعم بخيبة أمل، مثبتة بنزعة متشائمة لطبيعة الإنسان، وغفلة عن القداسة في الخليقة، تقنعهم بعبثية هذا العالم وخلوه من المعنىٰ.

ومن هذا المنظور، لا يصلح ذلك التكهن أساساً موثوقاً به للمعرفة، ولا لأن يقبل عليه إنسان سوي، فالإنسان يصير في ظله مطارداً علىٰ الدوام باللايقين. ويتبدد، -علىٰ نحو لا شفاء منه- أي إحساس بالأمن، وبالصفاء، والسلام العقلي. وهذه نتيجة متناغمة منطقياً مع الفرضيات الرهانية التي يقوم عليها، وهي متناقضة بشكل جذري مع الرحمة الإلهية التي هي عماد المنظور المعرفي التوحيدي، وقطب رحاه. وتتطلب هذه الخلاصة التي انتهينا إليها، وتسوغ البحث عن إجابات شاملة لا محل للبحث عنها إلا في المصادر الأصلية النقية للهدي الرباني الكوني المنزل.

النَّهل من المنابع

الرجوع إلىٰ القرآن الكريم لمعرفة ماهية الإنسان، هو الوضعية الوحيدة الصحيحة التي تتمشىٰ مع المنظور الإسلامي، فيما يتعلق بهذا الموضوع. فعقب مفتاحه ومدخله في فاتحة الكتاب، تأتي التذكرة والتنبيه بفواتح سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٢-٥].

وإذا كان القرآن هو نقطة الانطلاق الوحيدة، التي يمكن التعويل عليها في البحث عن مسألة محيرة وحيوية مثل: ما هو الإنسان؟ ماذا نعرف عن أنفسنا؟ وماذا يمكن أن نعرفه عنها؟ فإن بحثنا لا يلزم أن يقتصر علىٰ ذلك. فمن جوهر تعاليم ذلك الوحي الرباني المنزل للإنسان أن ينعم الإنسانُ النظرَ ويتدبر في تجربته، وفي البيئة المحيطة به، ليصل إلىٰ معرفة موثوق بها ومدروسة، فالقرآن الكريم يدعونا إلىٰ السير في الأرض، والنظر في عاقبة من كانوا قبلنا، جنباً إلىٰ جنب مع التفكُّر في أنفسنا.

وفي القرآن أوامر كثيرة بأن نتدبر بأنفسنا في آيات الله في الكون، عسانا نصل إلىٰ معرفة تقودنا، إلىٰ جانب ما لها من نفع دنيوي، إلىٰ معرفة الحق. وفي تلك التعليمات حول منهجية البحث عن المعرفة، يكمن درس أولي مهم يتعلمه الإنسان عن نفسه. ويوحي هذا الدرس بأن علىٰ الإنسان أن يبدأ بالبحث عن معرفة خالقه؛ إذ تشكّلُ مقدمة منطقية وشرطاً، لتعمير مثواه الدنيوي المؤقت.

ويؤكد هذا الدرس، علاوة علىٰ ما سبق، أن المعرفة كلها تبدأ بالهدي الرباني، حتىٰ وإن كانت لا تنتهي بالاقتصار عليه. فذلك الهدي مُذكِّر لمن يعون أنه في غيبته -يظل بحث الإنسان عن الحقيقة مجرد تخرص- لا يمكن أن يكون بديلاً للمعرفة الحقة، ولا أن يغني عنها.

فحب الحكمة والبحث عن نورها، لا يمكن أن يتجاوز مشارف الوهم واللامعنى، فيما لو انفصل عن مرساه في الوحي المنزل؛ فالفلاسفة والمتكلمون يبدأون من العقل وينتهون بالوحي، وهم يخمنون لمن قد لا يكون الوحي قد بلغ إليهم، أو غفلوا عنه أو ارتابوا فيه. أما في ظل وجود الوحي وقبوله، فيصير هو نقطة البداية الطبيعية لاستكشاف الحياة.

وبالتوازي مع المعرفة، يقع البحث الإنساني عن البراعة والسيطرة، ولو تم هذا البحث أيضاً مستقلاً عن مرساه في الوحي، فإنه لا يُسفر إلا عن الخزي وتدمير الذات. فالهدي الرباني يحيط بالإنسان في معرفته وفي عمله، بوصفه الإطار الوحيد المعقول لكائن خُلق مزوداً بملكة المعرفة والعمل معاً.

وكما سنرى لاحقاً، فإن هذا التصور ذاته مستقى من الخطاب القرآني بذات درجة استنباطه من محتواه. وبالإضافة إلى ذلك، فإننا نتعلم شيئاً حيوياً من هذا التوجيه القرآني حول استعمال الإنسان لتلك المَلَكات، ونعلم أن مثل تلك المعرفة والعمل مقدرتان بدقة، ومتناسبتان في المدى الزماني والمكاني لتجسيدهما، فإذا فقدت تلك الخواص، فإن التوازن يختل.

والإنسان نفسه صورة من هذا التوازن، بوصفه نموذجاً مصغراً للكون، وأي إفراط في مساعيه يسفر عن اضطراب. والطغيان -الذي هو المفردة القرآنية الدالة على هذا الإفراط- هو سبب لتلك الفوضى وعلامة عليها. وهو، بتعبير آخر، علامة على اختلال في توازن الخليقة، يتساوى مع الظلم. ولما كانت كل المخلوقات موضوعاً لهذا التوازن، فإن استخدام الإنسان لملكاته يحتاج لمعيار يكفل توازنها، وهذه أيضاً من اختصاص الهدي الرباني. ومن ثَمَّ يمثل غيابه أو الغفلة عنه مؤشراً على الفوضى.

ولما كانت الخليقة خيّرة في جوهرها، ولها غاية، ولمّا كان بارئها هو الله الرحمن الرحيم، فإنه -سبحانه وتعالى- بهذا الهدي مَنَّ على الإنسان بهذا المقياس من لحظة

خلقه الأولىٰ. يقول الله تعالىٰ في سورة الرحمن: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ١-٩].

١- الإنسان في القرآن

ثمة اقترابان ممكنان علىٰ الأقل، لمعرفة الرؤية الإسلامية للإنسان من القرآن؛ **أولهما** هو الأوضح، متمثلاً في رؤية ما يقوله عن الإنسان، وفي القرآن مادة غزيرة مباشرة وغير مباشرة من هذا المدخل. و**ثانيهما** عبر الكيفية التي يخاطب بها القرآن الإنسان. ويمكننا أن نصل عبر ذلك الخطاب ومحتواه لصورة حقيقية للحياة، هي الأقرب لتحديد ماهية الإنسان بوصفه واحداً من مخلوقات الله تعالىٰ، ومعرفة ما يتفرد به عن المخلوقات الأخرىٰ، وما قد يشاطرها فيه.

وتقوم الرؤية الإسلامية للإنسان علىٰ فرادة خاصة تجعله مختلفاً عن بقية المخلوقات، جنباً إلىٰ جنب مع آصرة قرابة أساسية موجودة في الخليقة وسارية فيها، وهذا الفهم هو في لبّ الخطاب القرآني المتعلق بهذا الأمر، وقد يمدنا بمفتاح نفسي لفهمه.

ومع ذلك، فإن من المألوف بدرجة أكبر بالنسبة لمن يتخذون من القرآن مصدراً لمعرفة ماهية الإنسان، أن يقصروا انتباههم علىٰ نصوصه، ونادراً ما يعيرون بالاً للكيفية التي يوجه بها، مع أن كلاًّ من الطريقين سبيل لمعرفة الكثير عنها، علىٰ قدم المساواة.

ومن ثم، فإن إطار بحثنا هنا ينطلق من مسلّمة قيمة الاقتراب من القرآن الكريم بوصفه خطاباً إلهياً موجهاً إلىٰ الإنسان، وسنحاول عبر تحليل هذا الخطاب بناء مفهوم الإنسان كما يصوره القرآن، فيما وراء النصوص الواردة في الآيات ذاتها. ومن ثمَّ فإنَّ قوام الفكرة المطروحة هنا هي رؤية الإنسان عبر القرآن في سياق

ما يحتويه الخطاب جنبا إلىٰ جنب مع الكيفية التي تتجلّىٰ بها؛ أي عبر استكشاف استراتيجية الخطاب، إلا أننا نحتاج أولاً إلىٰ إزالة العديد من أوجه سوء الفهم، وبقيامنا بتلك العملية، نضع محددات لإطار الرؤية الإسلامية للإنسان.

٢- مفتاح مقاربة الوحي كخطاب إلهي للإنسان

بوسعنا أن نفترض وجود ثلاثة مستويات للخطاب في القرآن متعلقة بالإنسان: **أولها** هو الخطاب المتعلق بخلق الإنسان. و**الثاني** خاص بتكريم الله للإنسان. و**الثالث** خاص بهداية الإنسان وتوجيهه.

وتتشابك هذه المستويات الثلاثة، فضلاً عن كونها من مصدر واحد، وتتعلق جميعها بموضوع واحد، والفرق الوحيد بينها هو في الجانب الذي يؤكّده كل منها، مع كون تلك الجوانب كافة تشكل في نهاية المطاف خطاباً متكاملاً لا يتجزأ، فالخطاب المتعلق بالإنسان هو ذاته جزء من خطاب كامل وشامل موجه من الله تعالىٰ للإنسان لكفالة هدايته، وتحتاج هذه النقطة إلىٰ بيان موجز في ضوء الروح القرآنية التي يستمد منها هذا الخطاب أساسه وجوهره.

فالهدي الإلهي ذاته يشكل آصرة الرحمة الربانية، ويؤسس مبدأ كون الإنسان كائناً علاقياً، وكل ممكن، ولا تتحقق سلامته إلا باندماجه مجدداً في الكل الأكبر الذي فطر علىٰ الارتباط به، وتنجم عن غيبة هذا التصور للإنسان ولموضعه بين المخلوقات كلُّ أشكال الانحراف. ويتحرك المؤشِّر بين قطبين: **أولهما** تصور الاستقلال المطلق، الذي يتحول إلىٰ دعوىٰ السيادة المطلقة. و**ثانيهما** وَهْم صوفي بتوحُّد مطلق مع الكون، يترجم في ظلال شتىٰ لمقولة وحدة الوجود.

ويصير الإنسان في حالة ما ضحية لاغتراب يمكن أن يدفعه في نهاية المطاف إلىٰ التحول من الرغبة في الهيمنة والإخضاع، إلىٰ رحاب وَهْم تخطي كل حدود الآخرية، والانغماس الذاتي. وتقود النفس الضالة والمغرورة إلىٰ توليد صور من

الإفراط الخاص بها، والدفع باتجاه النقيض، بالسعي إلىٰ تدمير ذاتها، والذوبان الكامل في فضاء الآخر الفسيح.

وبالنظر لوجود علاقة فطرية متأصلة في الإنسان تربطه بشيء غير نفسه الأَنوية، فإنه في بحث أبدي لا يتوقف عن إرساء علاقة تتجاوز نفسه، وتصير مشكلته هي كيف يوازن بين الاستقلال الذاتي والتبعية، وبين التمرّكز حول النفس والتوحّد مع الآخر.

وهذا هو موضع تجلي رحمة الله علىٰ الفطرة الإنسانية، فهو يوجّه الإنسان إلىٰ قطبي النفس والغيرية بتنشئته علىٰ إدراك حقيقة مفهومي (العبودية والألوهية)، وهي علاقة لا يمكن أن يعبر عنها بما هو أبلغ من تسميته (عبد الله)، والتوازن بين كينونة الإنسان في هذا العالم والثقافة والمجتمع دالةٌ في إتمام هذه العلاقة.

فالوحي الإلهي، يكفل وميضاً من نوره للإنسان علىٰ الطريق، دون أن يفرض نفسه السير عليه، فهو لا يحرمه من قدر من الاستقلال الذاتي الممنوح له من بداية عهده بالوجود. ولا محلَّ فيه للرؤية القميئة الذاهبة إلىٰ (إرغام الإنسان علىٰ أن يكون حراً) كما يزعم التشريع الأسطوري لروسو. فبينما قد تخامر البشر أوهام لا أساس لها من الصحة، بخصوص الحقيقة وما هو خير بالنسبة لهم، فإنه لا سبيل لتخليصهم من "الوعي الزائف" بتدخل جراحي، بسوقهم كالقطيع إلىٰ التنوير علىٰ يد طليعة ثورية.

وفيما وراء الحرية، تكمن الكرامة، التي كفلها الله للإنسان بالنفخ فيه من روحه، والإنسان حر في أن يختار، وفي أن يخطئ، شريطة أن يكون علىٰ وعي بالطريق، وعارفاً بعواقب اختياره. ودور الهدي الإلهي المنزّل هو أن يكفل له فرصة وضع كل شيء في حجمه الصحيح، وهو ما لا قبل له في أن يأمل من دونه في تحقيق السلام والازدهار في دنياه ولا في آخرته. وهذا هو مفهوم توأم الفَلاَح والنجاة في الدارين، فالأمر يتجاوز الخلاص إلىٰ الفلاح (النجاح، والإنجاز،

وتحقيق الذات، والازدهار). ويكفل الهدي الرباني بيان طريق تحقيق الإنسان لذلك، ولكنه لا يكفل له السير على جادته. وههنا يكمن الاختبار وحمل الأمانة: اختبار حريته، وحمل أخلاقيته.

وربما يكون أفضل سبيل لبيان تلك الروح الإسلامية هو تجليتها برؤية من الخارج؛ فالإنسان يُفتتن بمسألة: إما أن نكون أو لا نكون، على شاكلة معضلة هاملت، في ظل ثقافة يُعدُّ الوجود ذاته في عرفها هو الإشكالية. أما في ظل الروح القرآنية، فإن الإشكالية لا تكون متعلقة بالوجود ذاته، وإنما بعمل الإنسان. والقضية ليست قضية ما نعرف وكيف نعرف، وإنما ما نعتقد، وكيف نحيا بما يتوافق مع تلك المعتقدات.

فالقرآن يعلمنا أن أسئلة الفلسفة الرئيسة لا طائل منها، ويوجه طاقتنا إلى مهام الحياة المركزية، وسبيله إلى ذلك ليس تجاهل أسئلة من قبيل: من أين أتينا؟ وإلى أين نسير؟ بل تقديم إجابات بسيطة وشاملة وحاسمة، تريح القلب الإنساني، وتعفيه من القلق عديم الجدوى، كما سنبين لاحقاً.

ولا يقف عطاء القرآن عند هذا الحد، فعلى ضوء حقيقة أن الإنسان خُلق لغاية، وأن الهدي الإلهي يتوجه إليه لكفالة سلامة سيره نحو تلك الغاية، فإن الأمر المنطقي الوحيد، أن تُعنى الرسالة ببيان المخاطَب بها وشروط سعيه، لتحقيق الغاية من وجوده على الأرض.

ولتأويل رسالة الهدي الإلهي -من منظور المخاطب بها- تحدياته الخاصة به، وسيتعين علينا أن ننتقي؛ فللخطاب الموجه من الله تعالى إلى الإنسان صداه البالغ الخصوصية، فهو خطاب آمر موثوق به، صادر عن من يعلم السر وأخفى عن موضوع خليقته. وبوسعنا توقُّع أن نجد فيه مفتاحاً لفهم واحد من أكثر الموضوعات مراوغة في الخطاب المعاصر بين دعاة الحداثة.

إلا أن القرآن ليس كتاباً عن: من هو الإنسان وما هي خصائصه، وما هي كل جوانب قصة حياته على الأرض، بل هو موعظة للإنسان، ليرتقي إلى مستوى الفطرة الإنسانية التي فطره الله عليها، ويحقق الغاية من خلقه، ويبين له عاقبة استقامته على الصراط المستقيم في القيام بتلك المهمة، وعاقبة انحرافه عنها. وفي هذا السياق نبصر الحقيقة ونعرف أبعادها، ونغني خارطتنا المعرفية بمفاهيم الزمان والفضاء والأحداث والسمات، وفي عملية الإغناء هذه، نعي مدركاتنا الحسية بوصفنا بشراً يمثلون هدف خطاب نابض بالحياة، وعبر هذه العملية ينضج فهمنا لأنفسنا.

وليس الوحي المنزل مجرد نص أو حتى كتاباً للقراءة بالأساس، بل هو صوت آسر نسمعه، ونجتهد في الإنصات إليه، فهو يحتوي على رسالة ومعنى ندركهما عبر حواسنا المنشطة، التي تبدأ بالسمع والبصر. ثم تنفذ الرسالة من حواسنا إلى قلوبنا وعقولنا، على نحو يمكننا من مشاهدة خطاب نشارك فيه باستجاباتنا، ويشكل الاستماع المرشح الأول لتلك الاستجابات.

وبهذا الشكل، فإن الوحي دعوة من الله تعالى، ونحن مدعوون لتلقيها حية، بأن نثبّت أنظارنا صوب مصدر هذه الدعوة، ونبدأ نسمع ونفكّر، ونتصور، وندرك، ونفهم، عسانا نطبّقُ معنى الرسالة في عملنا في حياتنا.

ولا فاصل في الرؤية الإسلامية بين التفكير العقلي والتأمُّل والعمل أو الإرادة، وبالمقابل يأتي التمييز التقليدي في سجلات التعلّم البشري بين "العقل" و"الوحي"، وهو تمييز يوحي بوصفهما ثنائية، إن لم يكونا نقيضين، ووصل التأكيد على هذا الفارق حداً مُحي معه التناغم الأساسي بينهما.

ويلفت الخطاب القرآني أنظارنا إلى هذا التناغم، بجعلنا ندرك أن العقل هو وسيط تدبّر الوحي، فصوت السماء يخاطب الإنسان بخطاب ينفذ إلى القلب دون أن يفقد خاصية إدراكه بالعقل. ويوجه الوحي البشر بحق إلى جوهر التدبر

والفهم بالإشارة إلىٰ أن القلب هو موضع العقل، ويذكّر المستمعين إليه كي لا يختلط عليهم الأمر بأنه لا تعمىٰ الأبصار، ولكن تعمىٰ القلوب التي في الصدور. ويتعين عدم الخلط بين الإحساس وحامله، ويعرف الوحي نفسه بمقولات لا يمكن فهمها إلا عبر استدعاء وظائف العقل.[1]

فالعقل يختبر، ويحلّل الإشارات التي يستقبلها، ويتذكر، ويتعرف، ويميز بين العناصر التي يتعرّفها أو يحددها. وبوسعه أيضاً أن يؤلف بين أجزاء المعلومة التي يتلقاها ليشكّل معنىٰ رسالة. وبذا فإن العقل ليس مجرد وعاء، بل هو مخزن ونظام للاسترجاع، ولمعالجة المعلومات، وللغربلة، وللإنذار، وهو يعمل فيما وراء شبكة الحواس الإدراكية التي تقوم بشتىٰ وظائف المعالجة، بوصفه مقر قيادة للعمليات، بمعنىٰ أنه يوجه الاستجابات وينسق بينها علىٰ مستوىٰ الإدراكات والتصورات، لتحفيز وتنشيط وعاء أساسي آخر للطاقة المدّخر في كيان الإنسان، هو: الإرادة الإنسانية، التي عساها تحوّل هي الأخرىٰ الإشارات المستقبلة إلىٰ دوافع، وتحوّل العزم إلىٰ عمل. ولا غرابة في ضوء ذلك، أن تتوجه رسالة الهدي الإلهي إلىٰ قلب

(١) من الجدير بالذكر أن غربياً جليلاً هداه الله تعالىٰ بفضله إلىٰ الصراط المستقيم، يرد عدم تقدير الغربيين للقرآن حق قدره إلىٰ عاملين أساسيين: عقلانيته ورؤيته المتكاملة للحياة، فهم يرونه عبر تلك العقلانية. ويستحق التفسير الذي يقدمه لاقتباسه بطوله. يكتب محمد أسد في مقدمة كتابه (رسالة القرآن) "من الراجح أن أحد الأسباب الرئيسة لعدم تقدير الغربيين للقرآن حق قدره، يكمن في ذلك الجانب من القرآن الذي يميزه عن كل ما عداه من الكتب المنزلة الأخرىٰ، كونه يركز علىٰ العقل بوصفه طريقاً صحيحاً للإيمان، وكذا إصراره علىٰ عدم الفصل بين مجالات الحياة الإنسانية الروحية والمادية (ومن ثم الاجتماعية). فهذا الغياب لأي تقسيم للحقيقة إلىٰ "طبيعي" و"روحي" يجعل من الصعب علىٰ أناس نشأوا في فلك ديانات أخرىٰ تركز علىٰ العنصر ما فوق الطبيعي المزعوم أنه متأصل في كل خبرة دينية حقة، أن يدركوا الاقتراب القرآني لكل الأمور الدينية، الذي تغلب عليه العقلانية. فمثل هؤلاء البشر تعودوا علىٰ تحديد الخبرة الدينية باستثارة الشعور برهبة روحية أمام أشياء غيبية وفوق استطاعة الفهم العقلاني". ويفسر ذلك في جانب منه التوجه الشكوكي لماكس فيبر في الإسلام بوصفه ديناً خلاصياً. وهو يبرر مقولة سيد العطاس أنه إذا كانت العلمانية هي التحرر من الوهم أو إزالة عماء العالم الطبيعي، فإن الإسلام أنجز تلك المهمة من أمد بعيد. وعلاوة علىٰ ذلك، فإنه يقيم الدليل علىٰ صدق دعوىٰ القرآن أنه جاء رسالة تخرج البشرية من أسر التقليد والخرافة والجهل، ونوراً مبيناً لقلوبهم وعقولهم.

الإنسان المكون من مصفوفة متكاملة تشمل كل قوىٰ وعمليات الإدراك والعزم.

وإذا أدركنا أن القرآن تلاوة شفهية بالأساس؛ أي تلاوة صوتية احتفظت بنظام تلقٍ شفهي دقيق ومحكم ومعصوم، علىٰ نحو متواتر علىٰ مدىٰ القرون منذ أن تنزل القرآن، فإنه يكون بوسعنا تقدير الأهمية القصوىٰ لعلم أحكام التلاوة؛ فالدقة والمعصومية تشيران إلىٰ طبيعة الوعد الإلهي بحفظ كلمته وكفالة عصمة الوحي المنزل.

ويصير الوحي انطلاقاً من هذه الرؤية -لسلامته الاتصالية- نظام إشارات يتم بالأساس التقاطها من الهواء عبر حاسة السمع، ويثير ذلك علىٰ الفور سلسلة من الاستجابات في مراكز المخ، يتم ترشيحها عبر مجموعة من الاستجابات العقلية والنفسية والبدنية؛ وهذا هو السبب في أننا نحصل -أحياناً- علىٰ وصف حي متوقع لردود فعل جمهور مستمعين لصوت الحق.

فمن يرغبون في مقاومة الرسالة يعقدون العزم من البداية علىٰ نهج غير عقلاني، ومرد وصف نهجهم باللاعقلاني، هو أنهم يقررون موقفهم من مسألة دون أن يكلفوا أنفسهم مجرد السماع إليها. فالإنسان قابل للتحيز ولتحكيم العقل، والقرآن يؤكد علىٰ أن الاحتمالين ممكنان. والتحيز قد يكون نتيجة لمعلومات خاطئة أو لسوء فهم أو لعناد محض: رغبة في مناهضة الحقيقة، أياً كان الدافع إلىٰ ذلك. ومثل هذا الموقف متحيز؛ لأن صاحبه يحجب عقله، ويحل نزواته وعواطفه ومصالحه المتصورة سلفاً محل عقله ومصالحه الحقيقية.

ويصور القرآن هذا الحَجْب للعقل بكل جلاء، فهو يصوره بجدليات الإغراء التي تتحرك علىٰ نحو عفوي من السطح إلىٰ العمق، ثم تعاود أدراجها إلىٰ السطح. يقول الله تعالىٰ في سورة محمد: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]. ويقول الله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]. ويقول سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف: ٥٧] . ويقول سبحانه في سورة فصلت: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥]. ويقول سبحانه في سورة المطففين: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤].(١)

ويمكن تصور تلك الأقفال، بل يمكن رؤية عواقبها بالعين المجردة. وينقلنا ذلك إلىٰ مستوىٰ آخر ينقل ردود الفعل المنظورة التي تجسد تعقيدات عملية غير منظورة تحدث داخل القلب. ويحاول بعض الرجال والنساء -غير المؤمنين في هذه الحالة - أن يسدوا منافذ الوصول؛ فيصموا آذانهم، ويغمضوا عيونهم، ويلقوا بثيابهم علىٰ وجوههم، ويسعوا للهروب من ساحة الشهادة، محاولين -بالمعنىٰ الحرفي للكلمة- عدم المبالاة بالحدث، وهذه محاولة بائسة لحجب الرسالة في

(١) يقول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ البقرة: ٧] ويقول سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾﴾[الكهف: ٥٧]. ويقول في سورة فصلت: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥]. فقلوبهم محجوبة في أكنة عن الحقيقة، مختوم عليها، صدئة يغطي عليها الران. يقول الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠]. ويقول في سورة التوبة عن المنافقين: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾[التوبة: ٨٧]. ويقول في سورة المطففين: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]. ويلاحظ محمد أسد في معرض تعقيبه علىٰ الآية السابعة من سورة البقرة ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٧]، التي هي أول إشارة في القرآن للرفض المتعمد، أن من سنن الله تعالىٰ في الكون أنه حيثما يتمسك شخص بإصرار بمعتقدات زائفة، ويرفض الإنصات لصوت الحق، فإنه يفقد بالتدريج القدرة علىٰ إدراك الحقيقة، ويصير كما لو كان قد ختم علىٰ قلبه(محمد أسد نقلاً عن المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني).

مصادر استقبالها بغية الحيلولة دون سلسلة من العمليات الإرادية واللاإرادية تعقب صدور إشارات الترتيل وتلقّي الرسالة.

وهم يفعلون ذلك انطلاقاً من الكِبْر، كما يبيّنه الخطاب الخاص بهم، وقد يفعلون ذلك انطلاقاً من الخوف، ومن الخشية من تغيير طريقتهم في الحياة، على الرغم من حقيقة أن إدراك الحاجة لذلك، والقدرة على تغيير النفس، تظل واحدة من أهمِّ وأجلِّ الخواص الإنسانية.

وهم يتصورون أنهم يستطيعون بحجب منافذ تلقيهم الوحي، تجنب سلسلة العمليات التي تنبثق من التقاط إشاراته، التي قد تدفعهم إلى فهم ما لا يريدون فهمه أو إدراك عدم جدوى القيود التي يفرضونها على أنفسهم، ولا يرغبون في التخلي عنها، ومن الواضح أن هذا سلوك يجافي العقلانية.

ولكن ذلك يقوم على افتراض أن الإنسان عقل خالص ومنبثق من جوهر عقلي، وفي الوقت الذي قد تحتلّ فيه العقلانية الصدارة في شخصية الإنسان، فإن الأخيرة مركبة، وليس ثمة ما يكفل أن يسود العقل بلا قيد ولا شرط. ومع افتراض أن المصلحة الذاتية المحسوبة جزء من العقلانية الإنسانية العملية، فإن ثمة عوامل أخرى قد تنفي اللجوء حتى للعقلانية المشروطة؛ فالإنسان معرض لأن يجلب الألم والمعاناة لنفسه، وهو بهذا المعنى يضر نفسه، وليس غيره فحسب.

ومثل ذلك السلوك المتدثر في زي محاولة لا طائل من ورائها لصم الآذان عن الرسالة، يعدُّ وفي كل الأحوال كلها عملاً لاعقلانياً، وفي غير صالح الإنسان، ويعارض الحجة التي يحتج بها الوحي مراراً وتكراراً، ويخدم هذا التكرار للحجة الرئيسة للرسالة في مناسبات شتى وفي سياقات متعددة، أكثر من مجرد التذكير بها فحسب، فهو ضمان لحماية المعاند من نفسه، مع الحفاظ دائماً على تلك المسافة الضرورية التي تحمل على عودة القلب والعقل إلى جادة الطريق دون إكراه من الخارج.

وحسب الرؤية الإسلامية، فإنه بينما يمكن أن يقع الإنسان فريسة لنزواته ولغروره، وبينما قد تكون الغلبة للبواعث غير العاقلة والمدمرة للذات، فإنه يظل قابلاً للإصلاح وللخلاص.

ويتأسس هذا الاعتقاد على مبدأ إسلامي أصلي آخر يتعلق بالميل إلى الاستقامة، والحق المتأصل في الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها. فإذا توفرت الظروف الصحيحة وإرادة معرفة الحقيقة، فإن التعقل يغدو ممكناً، ويتوقع أن يسود في نهاية المطاف، وهذا مسوّغ آخر للحاجة إلى تلقّي الذكر الحكيم على الدوام بهدي رائد ميسّر لمن يريده فحسب، ويعمل نداء الوحي الهادي للعقل على فرضية التعقّل النهائية المتأصلة في تلك الجبلّة الفطرية المطبوعة على الحس العقلي والخير.

بيد أن الإنسان من جهة أخرى، وبحكم كونه مخلوقاً حراً مختاراً، تقبل فطرته الإفساد، كما تقبل تكريس طابع الخير فيها و إتمامه. يقول الله تعالى في سورة التين:
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤-٦].

والرد إلى أسفل سافلين في هذه الحياة الدنيا، واللعنة في الحياة الآخرة، هما عاقبتا اختيار أخلاقي مؤسس على خاصية التمييز الإنسانية، والقدرة على التفرقة بين الحق والباطل. ومن ثم، فإن نداء الوحي الهادي للعقل يقوم بمهمة الذكر والبيان مخاطباً تلك الملَكَة، في مواعظه المتأنية، وتذكرته وبيانه المتكررين، وهو بذلك يحافظ -في آن واحد- على حرية الضمير بوصفه مبدأ كونياً وشاملاً، ويعيد التأكيد على سلامة الوعي الإنساني بوصفهما شرطين لحفظ كرامة الإنسان، وسنجلّي هذه الفكرة فيما بعد.

فإذا كان الدين هو القيمة العليا بين قيم ترقية الحياة، فإن السبب هو كون التديّن الفطري الذي جُبل عليه الإنسان هو التعبير المبلور لكينونته ووجوده في هذا العالم، وعلاقيته وتبعيته، مقابل استقلاله الذاتي واكتفائه بنفسه.

وللتأكيد على أن مبدأ الحرية في الدين هو المبدأ الأسمى لضمان حرية الضمير. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وبتجلية النور من الظلمات، ويضفي هذا البيان مزيداً من العقلانية على الإرادة الإنسانية، ويُكرِّس العقلانية بذات قدر حفظه للحرية.

بيد أنه لا يكفي الالتزام بمبدأي الخلافة الإنسانية -الحرية والعقلانية- دون غرس الوعي بالعوامل والقابليات المكيفة لها، وهي تبدأ من أعماق النفس، وتعمل بمحفزات في البيئة الخارجية. وإذا تُرِك الإنسان لنفسه، فإنه يستطيع أن يخمّن ويتأمل في أسرار النفس وعناصر المجتمع، ولن يصادف ندرة في الآراء المطروحة حول هذا الموضوع عبر العصور وفي مختلف الثقافات، إلا أن تلك الوفرة لا يباريها غير التشوش والاضطراب الذي تتسم به، النابع من تنوع الآراء المتضاربة حول نفسية الإنسان، وحول مضامين تأثير المجتمع على السلوك الإنساني.

ولما كان حافز التصرف على نحو أو آخر، متوقفاً على تلك البواعث الكامنة في أعماق النفس البشرية، فإن صوت الحق يصور تلك النفس لنا لنراها. وهنا تأتي مرة أخرى موعظة للإنسان لأن ينظر في نفسه، عساه يتصرف على بيّنة وبشكل مسؤول، ومؤسس على وصية عملية حول النفس، من العليم الخبير، كآية من آيات رحمته التي وسعت كل شيء.

وترشدنا تلك الوصية الربانية إلى أن نكف عن النظر في أنفسنا على شاكلة المقولة الدلفية التي بيناها من قبل، وأن ننفتح في السياق القرآني على مستويات كثيرة، ترسي الأساس لكل من الاستشراف التأملي والعلمي للنفس. يقول الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].(١)

(١) مثل قول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] نواة رسالة جامعية منشورة عنوانها (دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث) للباحث توفيق عز الدين، نشرتها بالقاهرة دار السلام عام=

وفي حين يمكن أن يسفر الانطواء الذاتي للفيلسوف والحكمة الفلسفية عن نتائج غير متيقّن منها، فإن الوصية القرآنية صادرة في سياق يكفل تأمين النفس من مخاطر مسيرتها في هذه الحياة، وكفالة مصيرها الأخير في آن واحد. وهذه الضمانات مرتبطة بخطاب متكامل للخليقة وللأبعاد الوجودية والأخلاقية المرتبطة بها، على نحو ما سيتضح من إطلالة خاطفة منتقاة لاحقة.

فالجنس البشري الذي هو خليفة ومخلوق مكرّم بوضعية ورسالة نبيلة في حياة دنيا، هي ممر إلى الحياة الآخرة فحسب، ليس فيض عقل محض، ولا أداة لإرادة محضة، فكلا التصنيفين تجريد عديم المعنى من نسج الخيال، ومن تصورات العقل التخميني الجامحة، والحقيقة أن الإنسان -ببساطة- مخلوق مركب من عقل وإرادة.

ومما يحسب للفكر الإسلامي، أنه استثمر عبقريته في محاولة تثبيت أقدامه في تجلية مركب البنية الإنسانية وسبر أغوار وأبعاد ملَكَاتها، ولم ينغمس في ممارسات اختزالية واستبعادية. ومن النماذج الدالة على ذلك، في التراث الإسلامي، على سبيل المثال لا الحصر، مؤلفات ابن سينا، والغزالي، وابن طفيل، والجيلاني، وفخر الدين الرازي، والأصفهاني.

وينصبُّ وجه الخلاف بين تصورات كل من أولئك المفكرين على بؤرة تركيز كل منهم، وليس على إهمال أي منهم لأية ملكة أو مكون إنساني. ثم إن مصدر ذلك التصور المتكامل الساري في مؤلفاتهم، والمحدد لأطرها ومتغيراتها هو القرآن؛ وهو بوضوح المعين الذي يتعين علينا الرجوع إليه، لبيان ذلك التصور، وتطوير طريقة

= ١٩٨٦م. وثمة توجّه -في عهد العلم المعاصر- لإعادة استكشاف جوانب التفرد في القرآن الكريم عبر قراءة مستنيرة في الاكتشافات العلمية في هذا العصر. وعلى الرغم من أن تسليط الضوء على المعجزات العلمية في القرآن مسألة مثيرة للجدل في الدوائر الإسلامية الحديثة، فإن الجدل بشأنها ليس بجديد. وثمة دراسات كثيرة تجسد ذلك المسعى.

تقديمه. وقد نبدأ بقراءة إجمالية له، ويمكن أن نسترشد به في تعرُّف التصورات المحورية لهذا الموضوع في تراث الفكر الإسلامي.

فالإنسان هو بالأساس، كائن كامل وقابل للكمال، وهو صورة مصغرة للكون الذي خلقه الله محكماً، ومؤهلاً للكمال. والإنسان بوصفه كائناً نشطاً، شأنه شأن الكون الأكبر الذي هو جزء منه، لم يخلق عبثاً، فهو مزوّد من البداية من لحظة تصويره مضغة في الأرحام، وحتىٰ قبل أن يولد، بميل فطري لكل من الخير والشر، ويتعزز هذا الميل بملكة إدراكية تمكّنه من التمييز بينهما بـ (نور داخلي قلبي وجداني). ويكمل ذلك النور، ويتأكد، ويعاد تأكيده بـ (نور خارجي وهو النور الطبيعي) متاح لكل بني الإنسان.

وهذه هي فحوىٰ الآيات البينات التي جاء بها رسل الله علىٰ مدىٰ التاريخ، وبيّنها القرآن الكريم؛ ذلك الكتاب المهيمن علىٰ ما سبقه، والهادي للبشر إلىٰ يوم الدين. وهذه هي الحجة البالغة والقاطعة للهدي الرباني ببعديه الجواني والخارجي، بالنسبة للفرد والأمة علىٰ حد سواء. فلا عذر، ولا ذريعة تُذكر، لصاحب ضمير حي لأن يتعمد الخطأ. يقول الله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥]. ومن فضل الله تعالىٰ وعدله أن كتب علىٰ نفسه الرحمة لعباده. يقول الله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: ١٢].

ويقول سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي

كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

ويقول جل وعلا في سورة غافر: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

ووعد الله حق لا ريب فيه. يقول سبحانه في سورة النساء: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢].

هذه هي الخطوط العريضة الأساسية للرؤية الكونية الإسلامية في ضوء الهدي القرآني، ويرتبط التصور المتكامل والمتوازن للإنسان في هذه الرؤية بمنظور كلي تتخلله مجموعة من المفاهيم المتعلقة بالله والكون والنبوة والمصير. وبذا، فإن أي حديث عن الإنسان في الإسلام لا يكتمل دون فهم نواة العلاقات المفاهيمية والوجودية، التي خلق فيها، ويجد نفسه فيها.

وقصارى القول، إنّ الحديث عن الإنسان في القرآن هو حديث العقل بقدر ما هو حديث الإيمان، وهو مؤسس على عقيدة التوحيد ومنطقه. وهذا هو النموذج والدرس الذي نتعلمه من أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم الحنيف الذي هو أول المسلمين، ضمن سلسلة طويلة من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله لأممهم على مدى التاريخ.

٣- معالم الأسوة بإبراهيم الخليل

ركزنا فيما سبق على قدرة الإنسان على التفكير والتصرف، وبيّنا كيف أنه يولد مزوداً بقابليات وقدرات فطرية، لتجسيدها في مجرى حياته، وهو أيضاً مخلوق بحاجات يسعى لتحقيقها. وتبدأ هذه القدرات والصلاحيات بالقدرة على التعلُّم والفهم، وتشمل القدرة على تطبيق تلك المعرفة وذلك الفهم.

وتتصدر حاجات الإنسان، الحاجةُ إلىٰ البحث عن معنىٰ يعطي لسعيه غاية وهدفاً. والدين أمر جوهري بالنسبة للإنسان ولكل الحضارات البشرية، لكونه يلبّي هذه الحاجة الأساسية، ويستدعي قدرات الإنسان علىٰ التعلُّم والتعقُّل والفهم والعمل، في مستواها الأصلي الأول، فلا معنىٰ دون فهم، ومقتضىٰ الفهم هو تحدي الممارسات والأفكار الراسخة، إذا باتت خالية من المعنىٰ.

واكتساب المعرفة والتعلُّم هو الشرط المسبق للفهم ولبيان المعنىٰ، ويقع مفتاح هذه العملية، وعائدها الأخلاقي في القلب. وهذه بصائر نستكشفها من الخطاب القرآني، ممّا يقوله، ومن الكيفية التي يقدمها بها للإنسان. ويقدم لنا درس سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي تبرّأ من الزيف كله، وصار حنيفاً وأول المسلمين، نقطةً مرجعية نموذجية في هذا الصدد.

يقول الله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]. ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]. ويقول في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]. ويقول سبحانه في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]. ويقول في سورة الحج: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وثمة منظورات كثيرة بالنسبة لقصة إبراهيم، تماماً كما هو الحال بالنسبة لقصة آدم، ونحن في هذا السياق نبحث عن إبراهيم بوصفه النموذج الأصلي للإنسان علىٰ المستوىٰ الأخلاقي والتاريخي؛ فبينما يمثل آدم الإنسان علىٰ المستوىٰ

الوجودي الكوني، فإن إبراهيم بوصفه أبا الأنبياء في سلسلة النبوات التي تنتهي بالنبي الخاتم محمد ﷺ، أتى في منتصف طريق حياة البشر على الأرض، فنحن نقابله في موضع وجد فيه البشر من قبل، ورسّخ فيه الجنس البشري -رجالاً ونساء- طرق ونماذج حياتهم أو ورثوها عن أسلافهم.

فها هو إبراهيم يتأمل بقدراته الفطرية في طرق حياتهم هذه، ويشك فيها، وينتهي إلى كونها غير وافية بالمراد، فيدير وجهه عن آلهة قومه الزائفة، بحثاً عن الحقيقة والمعنى وعن بوصلة الحياة، ويجدها جميعاً في الله الواحد الأحد، خالق كل ما في الوجود وراعيه. يقول الله تعالى في سورة الأنعام في معرض بيان ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٤-٨٠].

ويقول سبحانه في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: ٨٣-٩٩].

وكان طريق إبراهيم لمعرفة الله تعالىٰ، هو طريق العقل، ومنطق تفكيره بسيطاً، ومعصوماً من الخطأ، ومتاحاً لكل بني الإنسان. يقول الله تعالىٰ في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ
وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ
﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ
ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى
مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ
مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ
﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ
نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ
أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٩-١٠٢].

ولم يكن طريق إبراهيم هو الإيمان بعلم من عند الله اختص الله به أناساً بعينهم، مثل صاحب موسىٰ عليه السلام، كما جاء في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥] .

بيد أن بحث إبراهيم العقلاني المستنير والدؤوب، لم يكن بأي حال بدافع الفضول التكهّني، فقد كان بإلهام يتغذىٰ علىٰ باعث داخلي للبحث عن الحقيقة، ومصحوباً بعاطفة جياشة للوصول إليها. ولذا فإنه حين توصّل إليها احتضنها من أعماق قلبه، واتخذ منها نموذجاً وقانوناً وغاية لحياته. والشيء المهم بالنسبة للطريق العقلي إذن، هو أن يكون جزءاً من طريق متكامل مرتكزه في قلب نقي

ومنفتح أو بالتعبير القرآني: قلب سليم.[1] والقلب هنا هو مركز القصد والمعيار الذي يرجّح كفة الميزان لصالح أو ضد كل تصرف إنساني.

وطريق إبراهيم، الذي هو طريق العقل المعزز بقلب سليم، طريق مفتوح، في الرؤية الإسلامية، لكل إنسان راشد عقلانياً وأخلاقياً، وهو طريق الإخلاص القلبي الكامل، والالتزام الديني الراسخ، وهو كما يصوره القرآن الكريم في سورة الأنعام: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٤].

والآدميون الذين يعيشون -كما عاش إبراهيم عليه السلام- وسط مجتمعات تاريخية لها مقاييسها السائدة للحقيقة، سيجدون أنفسهم بحاجة لاتخاذ موقف وصنع قرار، قد يؤدي بهم إلى مفارقة شعوبهم وطرق حياتهم، والشروع في السير على

---

(١) يقول الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. ويقول في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣-٨٤]. وهذا القلب يبصر. وفي سورة ق نقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]. فالقلوب أصناف: قلوب مبصرة، وقلوب أوابة، وقلب منيب. يقول الله تعالى في سورة ق: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣]. أما الصنف المضاد فهو: القلب المريض، كما يتحدد بقلوب المنافقين. ففي سورة البقرة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]. وفي سورة النور: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: ٥٠]. وفي سورة التوبة: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٥]. وفي سورة محمد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠]. ومن أنواع هذا القلب المريض: القلوب القاسية، وغيرها من صور الأمراض القلبية. ففي سورة المائدة نقرأ قول الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. ومفهوم القلب السليم مفهوم قرآني تشكل منه تراث في الفكر الإسلامي في سياقات أخلاقية عملية، وفي سياقات تغلب عليها العقلانية أو النزعة التأملية الصوفية.

طريق الجهاد والكدح والتضحية الذي اختطه إبراهيم، وسار عليه كل الأنبياء الذين جاءوا من بعده ومن تبعهم. ولم يكن طريق إبراهيم طريق العقل والإيمان والالتزام فحسب، بل كان كذلك طريق تحمل التضحية والابتلاء بعزيمة ثابتة.

وعلاوة على ما سبق، فإن الرؤية الإسلامية للإنسان تتضمن على الدوام بُعداً شخصياً ووجودياً يعمل على المستوى الجواني، في العلاقة الحميمة والفريدة بين الإنسان وخالقه، ويوجد أيضاً بُعد عبر ذاتي واجتماعي يحمل معه مضامين تاريخية لتشكُّل المجتمعات والأحداث؛ وكلا البعدين فعال في نموذج إبراهيم: على المستوى الشخصي والحميمي؛ إذ إنه مرّ بعملية التحول في وعيه، واستعادة واستكشاف هويته ورسالته الحقيقية، وانتهى بتأكيد عهده مع خالقه سبحانه وتعالى، وهو في الوقت ذاته مؤسس نسب وذرية من ينهجون نهجه في التقوى والأخلاقية الروحية، لا من ينحدرون منه بالقرابة البيولوجية. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤].

ولا غرابة أن الشخصين اللذين قدمهما القرآن للبشرية بوصفهما نموذجين للفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها، وللأسوة الحسنة، هما: إبراهيم، ومحمد عليهما الصلاة والسلام. يقول الله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة: ٤]. ويقول في سورة الأحزاب: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

فالأول وضع الأسس النموذجية للطريق والأمة، التي جاء الأخير ليُتِمَّها، ويجسّدها ويحقّقها ويجلّيها في أرض الواقع. وليتحقق مشروع الإنسان، يتعين أن

تلتقي إمكاناته واحتياجاته على هذا الطريق، وعندها تتناغم عناصر الشخصية المتكاملة والسوية النابعة من ذلك، مع متطلبات نجدَي الحياة: طريق الخير وطريق الشر. فالإنسان خلق بوصفه مخلوقاً في الزمان وفيما وراء الزمان، وهذا الطريق جسر يربط بداية رحلة حياة الإنسان على الأرض بنهايتها، والبحث عن التحقق والأخلاقية يقع على هذا الطريق.

تناولنا حتى الآن عناصر الحديث عن الهدي الرباني في القرآن الكريم، على نحو يمكننا من تَعرّف خصائص عامة لصورة الإنسان وإمكاناته. ولعلنا نذكر هنا بأن هذا الخطاب ينبع من الأمر (اقرأ)، ويبدأ مسار التعلُّم الذاتي على طريق معرفة الرحمن الرحيم الذي أحاط بكل شيء علماً، ويكمل بالتعلُّم جنباً إلى جنب بالسير في الأرض، والتدبُّر في الكون المنظور.

والنبي محمد ﷺ، هو الإنسان القدوة الذي تلقّى هذا الأمر في أول ما تنزّل عليه من الوحي من الله تعالى، وربما تؤكد حقيقة أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب لحظة تنزّل جبريل عليه السلام عليه بفواتح سورة العلق، أن جوهرها يخاطب الفطرة، ومضمونها أن بوسع كل إنسان صاحب نية خالصة أن يبدأ من صفحة بيضاء. وهكذا، فإن أمر (اقرأ) يقوم على معرفة وثيقة بالطابع الإنساني، وبقابلياتها الكامنة، وهو يؤكد سمتي التعقُّل والإحساس لدى الإنسان، اللتين استخلصناهما فيما سلف.

وننتقل لمستوى آخر في تدبُّر الخطاب القرآني المتعلق بالإنسان، ينحصر فيه اهتمامنا بجوهره في المقام الأول، وقد يتطلب ذلك قراءة انعكاسية للنفس الإنسانية تبدأ من الداخل إلى الخارج، مع تحركنا من مدارات متحدة المركز للأبعاد المتشابكة والمتمددة التي تجسر بين أصل الإنسان ومصيره، في مدى يتلاءم، على نحو موثوق به، مع الوصف القرآني.

وقد تُجلّي رؤية هذا الموضوع في الأدبيات الأخرى من منظور مقارن، خصوصيات الرؤية القرآنية، وتمكّن القرّاء المنتمين إلى خلفيات ثقافية مختلفة من

الارتباط بها على نحو مباشر، وتعزّز تقديرهم لكثير مما قد يعدّونه من دونها أمراً مفروغاً منه، إلا أننا لن نشرع في معالجة هذا المخطط المقترح هنا، بل سنتركه ليكون خياراً وتحدياً، لتحفيز مزيد من البحث حول هذا الموضوع. وبدلاً من ذلك، فإن البؤرة الانتقائية لهذه الدراسة، ستنطلق من جوانب الخطاب القرآني المتعلق بالخليقة، لإلقاء الضوء على الجوانب الأخرى للرؤية الإسلامية للإنسان.

الحديث القرآني عن خلق الإنسان

دعونا نبدأ القراءة ببعض الملاحظات العامة، فالرؤية المنبثقة من القرآن عن خلق الإنسان تجمع في آن واحد، بين كونها حقيقية، وعلمية، وروحية وصوفية بأعمق ما تحمله الكلمة من معنى، فخلق النفس -شأن خلق ما عداها من المخلوقات- آية من آيات الله، وبرهان دال عليه سبحانه وتعالى، وهو بيّنة تجريبية وتاريخية للإنسان في هذه الحياة الدنيا، تشير إلى مصدرها، وللحقيقة المنزلة.

فالقرآن يهيب بالإنسان، مراراً وتكراراً، أن ينظر في نفسه، وفي خلقه، وفي الماضي بوصفه سجلاً وتوثيقاً للحاضر، ومؤشراً لمستقبله. ومن المرتقب أن يقوم الإنسان بذلك بعين تستقصي، وعقل يدقق ويتفهم. ويطيب لنا هنا أن نفصّل بعض ما أشرنا إليه من قبل بخصوص الأوامر والنواهي الربانية.

يقول الله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[الذاريات: ٢١]. وتشمل المفردات القرآنية التي استخدمت لحث الإنسان على التفكير النقدي جذور أفعال مفتاحية مثل: أبصر، تدبر، عقل. وهي ترد بوجه عام بصيغة استفهامية بليغة قوية: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾، ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾. ووردت صيغة (أفلا) هذه خمساً وأربعين مرة في القرآن الكريم، معبّرة عن ذلك الاستنكار الأولي المتأصل في كل عقل سوي.

ولقطع الشك باليقين، فإن ذلك التعبير يتعزز بالتأكيد عليه بوعد إلهي، يقول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: ٥٣].

وهذا مرة أخرى من التحديات المستديمة المتضمنة في القرآن، وهو تحدٍّ موجه إلى العقل الإنساني، ولنوعية المعرفة التي يكتسبها بالتراكم، ولاسيما تلك

المعرفة العلمية والوضعية، التي يتم تحصيلها عبر الملاحظة والتمحيص الدقيق، والتي يتوسط فيها الاستدلال غير المباشر، والكشوف المتعلقة بالحقيقة الظاهراتية والتاريخية، التي تشكّل موضوعها.[1]

وهذا هو المعنىٰ المستخلص من هذا الوعد الإلهي في سياقه المباشر في سورة فُصّلت علىٰ وجه الخصوص، وفي السياق الأعم للآيات ذات الصلة به في عموم الخطاب القرآني، ولا يمكن فصل الرؤية الإسلامية للإنسان عن سياقها، وعن إطار مرجعيتها. وهذا السياق هو القرآن كله كما سنبين في ملاحظتنا القادمة.

وليست رؤية الإنسان المستقاة من مصادرها القرآنية رؤية عرضية معزولة، بل هي خيط في نسيج قراءة كاملة للخليقة؛ فهي رؤية تتم عادة في سياق متناغم يوجه إلىٰ قرابة إيجابية مع الكون، وتحمل دلالة فيما وراء الخليقة، علىٰ مصدرها المشترك، فاطرها وراعيها والممسك بمقاليدها سبحانه وتعالىٰ.

ولكون تلك الرؤية للإنسان مستنبطة من فهم وطريقة للنظر، لا يقفان عند المظاهر الخارجية للوجود، فإنها تسعىٰ إلىٰ سبر غور علاقة السببية والجوهر، فكل منهما لا تتحقق علىٰ حساب الأخرىٰ، ولا تكتمل من دونها. ويشكّل ذلك بدوره ضرباً من التفكُّر العلمي الفلسفي المتولد من الثقافة القرآنية، الذي يرىٰ أن الحقيقة لا تتجزأ، ولا موضع في هذا العقل المسلم لسوء الفهم والمفارقة بين الحقيقة والقيمة.

وبوسع المرء أن يدرك ذلك من التدبُّر في تسلسل وسياق أي عدد من الآيات المتعلقة بجانب أو بآخر من جوانب بنية الإنسان وأطوارها، فلندقق علىٰ سبيل المثال في المعرفة المتضمنة في هذه الآية الكريمة من سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].[2]

(١) سنتعرض لاحقاً لموقف الأدب المعاصر من الإعجاز العلمي في القرآن بوجه عام، وفي مجال الأحياء والأجنّة بوجه خاص.

(٢) تشير هذه الآية الكريمة إلىٰ مصدر الحياة ذاته الحادث في سياق يشمل الموت والنشور بوصفه بُعداً أكيداً آخر في الكينونة الإنسانية.

فهذه الآية تأتي في سياق يشير إلى الماء بوصفه مكوناً حيوياً في الكون الطبيعي، في معرض تأكيد مبدأ كونه عنصراً أساسياً في كل شيء حي. يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠]. والماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب، ماء نقي بالأساس، وهو الماء ذاته الذي يمتزج بالأرض الطيبة، ليتمم مكونات بنيته الجسدية. وخَلْق الإنسان مستشهد به في المواضع كلها؛ التي ورد بها في القرآن الكريم، على نحو يلفت النظر إلى أوجه التقارب الحميمة بينه وبين الكون الذي يعيش فيه على مستوياته كلها. فهو من الوجهة المادية من التراب وإليه يعود. يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]. ويقول في سورة نوح: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧-١٨].

وهو من الوجهة الروحية قابل للتسبيح المشترك مع كون يستمد تناغمه من كون كل شيء فيه يسجد لخالقه. يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[الحج: ١٨]. ويقول سبحانه وتعالى في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

ولا يعد التبجيل الذي يستلهمه الإنسان من التفكير في الخليقة، وهو نفسه جزء منها، غاية بحد ذاتها على الإطلاق، بل يندرج على الدوام في الآصرة المقدسة التي تربطها بمصدرها وخالقها. وبهذا المنظور لا يغدو هناك مجال لعبادة الطبيعة، ولا لتأليه الإنسان، بل يكون هناك مجال فحسب لصفاء لانهائي يؤدي إلى الإحساس بالكينونة المرتبطة بمصدر الحياة كلها، التي تتغذى من وشيجة متخللة تربط بين كل المخلوقات.

وبوسع الإنسان في الإسلام، أن يكون في خَلْقه الجسدي ووظيفته الروحية، في سلام مع عالمه، فيما لو اختار ذلك، وهذا السلام دال في تكامله الداخلي، وكل ما يصرفه عن تلك الحالة يغدو عامل تفسخ، محفزاً لاغترابه عن الكون الذي يعيش فيه وعبادة الله وحده لا شريك له هي مناط تحقيق الإنسان لذاته في هذه الحياة، وثمرتها تعود بكاملها على هذا النحو إلى الإنسان.(١)

ومن مزايا هذه الرؤية المتكاملة والتكاملية، الحيلولة دون التجزئة والتذرية والتغريب في النفس البشرية؛ فهي تولّد نزعة توليفية، وتعزز عناصر الحكمة والكمال، والتناغم الذي ينعكس على المدركات والسلوك وطريقة الحياة. وفي أرض الواقع، قد تتعرض تلك العناصر للتثبيط والتعويق أو للتنمية التامة بحيث تثمر ثمارها المرجوة، ويتوقف الأمر على كيفية تعزيزها بأبعاد أخرى من السلوك الإنساني والتنظيم الاجتماعي؛ وهذه الأبعاد متكاملة في الرؤية الإسلامية للإنسان، ولا يتسع المقام لتفصيلها. إلا أنه من الأهمية بمكان، تذكر أنها بمثابة متطلبات مسبقة، لتحقيق تكامل نفسية الإنسان وصالحه الأخلاقي.

وتتعزز رؤية الإنسان المستقاة من الاطلاع على الخطاب القرآني، بالنظر إليه من وجهة أخرى، فالخطاب المتكامل والتكاملي الذي هو خطاب واقعي وروحي أيضاً، هو أولاً -وقبل كل شيء- خطاب غائي وهادف، فلا موضع للعشوائية في الخليقة برمتها بما فيها الإنسان، سواء جاءت تلك العشوائية في ثوب الأسطورة، أو في ثوب العلم، كما هو الحال بالنسبة لخرافة الانتقاء الطبيعي، بل إن المجال يضيق

(١) وهذا هو تفسير الآية الكريمة التي تفصل على وجه قاطع بين عبادة الإنسان لله تعالى وحاجة الله إلى تلك العبادة. فالله هو الغني بالمعنى المطلق للكلمة. وكل فائدة العبادة تعود إلى العابد لا إلى المعبود. يقول الله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝﴾[الذاريات: ٥٦-٥٨]. وتشير الآية السابقة لتلك الآيات مباشرة إلى التذكرة لكون الذكرى تنفع المؤمنين. يقول الله تعالى في الآية الخامسة والخمسين من سورة الذاريات: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾[الذاريات: ٥٥].

أمام دعوىٰ الحتمية العلمية المتوهمة، منظوراً إليها من زاوية ما هو ملائم للإنسان، ومسيرة العالم، سواء فُهمت من منظور الجوهر المادي والتطور أو الجدلية التاريخية. فكل شيء يتم بتقدير دقيق يعلمه الله، ولكن ليس بوسع الإنسان التثبّت منه إلا بشكل جزئي. يقول الله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]. ويقول في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَىۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: ٨]. ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة المرسلات: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِى قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣]. ويقول سبحانه - بمعنىٰ أعم - في سورة الزخرف: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: ١١]. ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة القمر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

والملاحظ أن مفهوم (القدر) يشير إلىٰ المقياس والتناسب، والمدىٰ والغاية، والاستحقاق والتصميم، ويشير علىٰ قدم المساواة إلىٰ المصير الذي ينقل -في الحقيقة- الأبعاد المتضمنة في التصميم والغاية والمقياس.

ويتكرر ذكر القدر في سياقات مختلفة للخليقة، تشمل: خلق الإنسان، وما يجب عليه، وتنزيل الوحي إلىٰ الإنسان في لحظة دنيوية فارقة هي ليلة القدر. يقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِى لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴿٢﴾ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ١-٥].

ونقطة الضعف الرئيسة في الإنسان هي فشله في القياس وفق مصيره، ورسالته في الحياة، وبداية هذا الفشل هي الإحجام عن استخدام الميزان الرباني في تقدير الله تعالىٰ حق قدره. يقول الله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَىۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى

لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ۝٩١﴾ [الأنعام: ٩١]. ويقول سبحانه في سورة الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾[الزمر: ٦٧].

ذلك أن الإنسان حين يكفر بربه وخالقه، يختل إحساسه بالمقياس والتناسب، ويشرع في فقدان رؤية معنى الحياة وغايتها. وحسب الرؤية الإسلامية للإنسان، فإن المعنى فطري في الإنسان، ليس لكونه متأصلاً بذاته فيه، وإنما بسبب أن الفطرة الصحيحة مفطومة على ذلك من مصدرها، وفي غيبة هذا المصدر أو التعتيم عليه يغدو إحساس الإنسان بالمعنى والتوازن في مهب الريح.

وجذر هذا التصور للمعنى والغاية والفطرة التي فطر الله الكون عليها، هو في الإيمان، وهو يتغذى على تعاليمه، وهو أساس الرؤية الكلية للمسلمين في الماضي وفي الحاضر، وهو سمة كل إنتاجهم الثقافي والأدبي، وهو يُفسر أيضاً السبب في أن اتجاهات فلسفية معينة نشأت في مواطن أخرى، لم تحظ إلا بصدى محدود في الوسط الإسلامي، بينما لم يكن لاتجاهات أخرى أي صدى. فرؤية الإنسان التي سادت في نطاق ثقافي معين في لحظة تاريخية معينة، عامل حاسم في تشكيل الفلسفات التي انبثقت عنها. وينطبق ذلك على الإسلام بوصفه نطاقاً ثقافياً؛ فمختلف الثقافات التي تشكّلت في فَلَكه، تعكس حدودَ رؤيةٍ تشكّلت في بوتقته الأصيلة.

وإذا انتقلنا في سياق هذه التعاليم الربانية ذاتها المتعلقة ببنية الإنسان، إلى مستويات أخرى من التدبُّر، فإنه يتكشف لنا نموذج آخر قابل للتمييز، فالتذكرة تأتي في كل حالة، في سياق يستتبع التزاماً بتعليمات أو بقناعة إيمانية. ومن الشواهد القرآنية على ذلك، التذكرة الواردة في قول الله تعالى في سورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ

أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، والتي تأتي في سياق أعم، ينبّه لمسؤوليات، يتصدرها واجب إقامة العدل، والفضل والكرم، ونبذ الشر والمعاصي، والوفاء بالعهود. يقول الله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩٠-٩٢].

وهذا في الحقيقة نموذج متواتر؛ فخلق الإنسان وأصله يساق بوصفه مذكراً ومحفزاً علىٰ التقوىٰ، وعلىٰ مراعاة الإنسان لالتزاماته وقيامه بحمل أمانته. ونطالع في فواتح سورة النساء، التي هي إحدىٰ السور المنزلة في المدينة، والمعنية في المقام الأول بالالتزامات التشريعية والأخلاقية في نطاق الأسرة، ما يلخص هذا النموذج في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وتلمح حقائق الخلق، مع ذلك، إلىٰ ما يقنع بحقيقة البعث، فيما وراء عالم الظاهرات الحالي. يقول الله تعالىٰ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦]. ويقول في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق: ٥-٨].

والإيمان بالغيب هو الأصعب بالنسبة لمخلوق مقيد ومثقل بكثافة المادة التي خلق منها، ولابد أن يكون منطق الإيمان معصوماً من الخطأ وكاملاً. ويجلّي القرآن في آية واحدة، خلاصة أساسيات حياة الإنسان من بدايتها في عالم الذَّر، عبر دورات نموها ونضوجها وأفولها للحث باستقراء منطقي وتجريبي على الإيمان، بقول الله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحج: ٥-٦].

ويحث هذا الخطاب، المنقطع النظير، الإنسانَ على الإيمان بتحريك العقل بمنطق آسر بأسلوبه المباشر وببساطته، وبعدم قابليته للدحض. يقول الله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠﴾ [العنكبوت: ١٩-٢٠].

ويقول في سورة الروم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الروم: ٢٧]. ويقول في سورة الأنبياء: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة الأحقاف: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٣٣﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ويقول في سورة يس: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ

مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١﴾[يس: ٨١]. ويقول في سورة الإسراء: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ۝٩٩﴾ [الإسراء: ٩٩].

ومنطق هذا الطرح القرآني هو حث الإنسان بوصفه كائناً عاقلاً ومتفكراً، أن يؤمن بما لا يستطيع أن يعرفه للوهلة الأولى بسبب محدوديته وطابعه الدنيوي المؤقت، بريادته عبر ما لم يعرفه سلفاً، أو ما يمكن أن يعرفه في نهاية المطاف، بالخبرة المباشرة أو عبر البحث العلمي.

وهذا هو المنطق نفسه الذي استلهمته المؤلفات العظيمة في التراث الإسلامي، ومن بين ما بقي منها قصة حي بن يقظان لابن طفيل، وروائع الغزالي، ونظرائهما. وفيما وراء الكلمة المكتوبة، تشكّلت حيوات في نطاقها من أئمة التصوف السابقين العظام من أمثال الجنيد البغدادي، وابن عطاء الله السكندري، وصولاً إلى ورثتهم وأتباعهم المعاصرين الذين لا حصر لهم، الذين ظلوا غير معروفين.

وفي كل الحالات، يتشرب هؤلاء روح المنطق القرآني، ويجسدونها في إدراك معرفي وإرادة، وتلهم تلك الروح -في كل حالة- الإحساس بالدهشة والمشاهدة، التي تُكتسب من يتذوقونه المعرفة به وبيقينياته، باستدعاء التقدم من المشهود إلى الغيب، حتى يصير مربوطاً بالمشهود.

وهذا هو المنطق نفسه الذي يتبعه العلماء والخبراء في مجالات تخصصهم في العصر الحديث، لاستعادة استكشاف العلاقية الأبدية للوحي الإلهي المنزَّل الخالص، مع إجلال ما يتكشف من الإعجاز العلمي بالقرآن.

فالإنسان -في منظور الإسلام- هو في الأساس الإنسان العارف والباحث عن المعرفة؛ وكل إنسان يضع قدمه على الطريق، ويأتي إلى ربه بقلب سليم، وبعزيمة صارمة، يصير قادراً على بلوغ مقام الإنسان الكامل. ومع ذلك، فإن الكمال لله

وحده، وحظ الإنسان هو السعي للكمال وليس إلىٰ تحقيقه؛ فعلىٰ الإنسان أنْ يسعىٰ ويكدح، وهو إن تأسس سعيه وكدحه علىٰ إرادة منحرفة ومعرفة غير صائبة، فإن سعيه يصير عبثياً. يقول الله تعالىٰ في سورة الانشقاق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]. ويقول في سورة البلد: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤].

١- محددات الرؤية: الوحدة والتنوع، التغير والاطّراد

أسسنا الملاحظات، سالفة الذكر، حول طبيعة الرؤية الإسلامية للإنسان علىٰ ضوء قراءة قرآنية، لا تزال هي دليل تلك الرؤية وبوتقتها. ونحتاج لمعالجة مسألتين مرتبطتين بذلك قبل استكشاف المزيد من جوانب تلك الرؤية.

أولاهما: هل نستدل بالإشارة إلىٰ جوهر دائم مطّرد، في مصادر لا تتغير ولا تقبل التغيير علىٰ اطّراد، وعدم قابلية للتغيير بالنسبة للرؤية الإسلامية للإنسان؟ وهل هذه تهمة ضمنية بوجود عنصر سكوني في الفكر الإسلامي قد يفضي إلىٰ عقمه، كما يظن بعض المستشرقين؟.

وتختص **المسألة الثانية** بالتجانس في الرؤية الإسلامية للإنسان. وبما أن المصادر غير قابلة للتغيير، وهي بحكم تعريفها مقوّم ثابت لا يتجزأ في تشكيل تلك الرؤية، فكيف نتوقع تنوعاً؟ وإذا حدث تنوّع فما هي محدداته؟ وقد نجد الإجابة عن هذين السؤالين في تراث الفكر الإسلامي، ونستخلصهما من تطوره. ومرة أخرىٰ نقول: إن هذا ليس هو الهدف من هذه الدراسة، وإن كان من المفيد إلقاء نظرة خاطفة عليهما.

فلنبدأ بالمسألة الثانية، فمن غير الممكن وصف الرؤية الإسلامية للإنسان بكونها متكشفة عن تناغم كلي ووحدة متراصة؛ فثمة غنىً وتنوّع نبضت به الحياة في المناظرات التي عرفها العقل المسلم حتىٰ في عصر التقليد، ولا يزال ذلك التنوّع

متواصلاً حتىٰ الآن، وهو الذي يجعل من الممكن أن يخرج مفكران إسلاميان معاصران يعالجان الموضوع نفسه في مناظرة، بقراءتين مختلفتين تماماً، قد لا تكونان متعارضتين بالضرورة، وإنما لكون كل منهما يتناولها علىٰ وجه التحديد، علىٰ مستوىٰ تفكير مختلف، وبمزاج مختلف.

فلنقارن علىٰ سبيل المثال بين كتابات محمد إقبال في شبه القارة الهندية في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين، وكتابات سيد قطب في العقدين الخامس والسادس من القرن ذاته.

فإقبال يكتب بمزاج يستحضر الموهبة الشعرية والبديهة جنباً إلىٰ جنب مع التفكير العقلي والفلسفي، وهو ينسج علىٰ منوال كبار المتصوفة المسلمين السابقين، مستحضراً شعر جلال الدين الرومي الأناضولي، وربما ابن عربي الأندلسي، ونموذجه هو الإنسان الكامل، الذي هو مفهوم دخل علىٰ المستوىٰ (الثيو صوفي) في كتابات عبد الكريم الجيلي.

وسنجد صدىٰ للموضوعات التي ركّز عليها -النفس والقلب وروحانية الإنسان وشفافيته- لدىٰ من جاؤوا من بعده من الثيوصوفيين، ومن بينهم مفكرون شيعة معاصرون مثل: الشيخ فضل الله حائري، بل حتىٰ لدىٰ مفكرين حداثيين مثل: علي شريعتي، ومفكرين سنيين: مثل شيخ الأزهر الراحل عبد الحليم محمود، وغيرهم ممن يستعصون علىٰ الحصر من الشخصيات الأقل شهرة الذين نسجوا علىٰ منواله، وأثّروا علىٰ الحياة الثقافية، وعلىٰ ممارسات المسلمين العاديين المتدينين في كل أرجاء العالم الإسلامي. ولو أخذنا مصر مثالاً، فسنجد أن مهنيين ومسؤولين من غير رجال الدين تحولوا إلىٰ متصوفة، وأبدعوا كتاباتٍ وأذكاراً، وكانت لهم جاذبية في قيادة حلقات الذكر، نذكر منهم، علىٰ سبيل المثال: حسن كامل الملطاوي، وعباس الديب، وحسن عباس زكي.

وعلى الجانب الآخر، فإنه لا علاقة تذكر لسيد قطب بمختلف صنوف ما هو فلسفي وثيوصوفي وصوفي. فنقطة تركيزه هي على المشكلة الاجتماعية، وليس المعضلة الوجودية.

وهو في تناوله لحاجة المسلمين أن يكونوا أحسن إسلاماً، يستحضر عدم وفاء كل منهم بواجباته تجاه الآخر في هذه الحياة الدنيا، وكيف أن ذلك يشكل خروجاً على الميثاق الأصلي القائم بينهم وبين الله تعالى، وخيانة لدينهم. ومحط اهتمامه هو: الإنسان بوصفه خليفة في الأرض، مقصراً في حمل الأمانة. والمهمة التي يتطلع إليها هي إعادة تحديد الرؤية الكلية الإسلامية، كي يتمسك الإنسان بحبلها، ليصير قادراً على الإصلاح والعمل على مستوى تلك الأمانة، وهو في قيامه بها ينهل على نحو عفوي من مصادر وموارد غنية في التراث، مستقاة هذه المرة من الفقهاء والأئمة.

ويتصدر ابن تيمية من تأثر بهم سيد قطب في هذا المقام؛ إذ هو من طوّر وصاغ، سلفاً، كل المفاهيم والمقولات كلها، التي قام عليها فكره، مثل: التوحيد والعبودية والألوهية والربوبية، والتي هي لبنات رؤية كونية من شأن إحيائها، تأمين الإنسان، مفاهيمياً وعاطفياً، بما أن شبكة علاقاتها ضرورية لتجديده، ولإصلاح المجتمع في نهاية المطاف.

ورغم ما سبق، فإن سيد قطب لا يكتب على منوال الفقيه، ففي كتاباته مسحة من التصوف والحدس، وهو يحفر في هذا الحقل، مما أدى إلى رصد ناقد غربي لأصداء "وجودية ما بعد حداثية " فيه، وهذه هي السمة السائدة في تفسيره للقرآن، وفي كتابه الموسوم: التصوير الفني في القرآن الكريم.

وربما تكمن المشكلة في السؤالين المطروحين في الافتراضات الضمنية التي تبعث على إثارتهما، وتبث الحياة فيهما، فهما -أولاً وقبل كل شيء- سؤالان حديثان يفترضان فضيلة في تغيير ما لا يلزم تغييره. ورغم هذا التناقض، فإنهما

يسلمان بنزعة شكوكية أساسية، ترتاب في وجود أية قيمة نهائية أو نموذج غائي. ويبدو مع ذلك، وبصرف النظر عن جوهر مثل تلك الأسئلة وطبيعتها، أن الخلل كامن في الهيكل أو في طريقة التفكير أكثر منه في المحتوى، فهي نابعة من طريقة تفكير قائمة على ثنائية (إما. . . أو) بتصور حصري مطلق مسبق، مع افتراض أن الأقطاب متضادة بالضرورة، وغير قابلة للتوفيق بينها.

وبالمقابل، فإن الوحدة والتنوع -في الرؤية الكونية الإسلامية- متكاملان، فالقرآن يعلّمنا وحدة النوع البشري بوحدة الخلق من نفس واحدة، وهو في الوقت نفسه يجعل من تنوعها وجهاً من وجوه روعتها، ومحفزاً على تكامليتها.

وبالمثل، فإنه من الممكن إدراك أن التغير والثبات مترابطان؛ ارتباط الحافة بمحورها، بتعبير الاستعارة الثيوصوفية. وجوهر هذه الفكرة هو وجود سنن محددة في الخليقة لا تتحول ولا تتغير -مثل سنن الله- وحركة وتغيير (تبدّل وتحوّل وتغيّر) بوصفها جزءاً من ذلك النظام الثابت وبوصفها أجزاء متحركة فيه.

وقد تكون تلك الحركة دورية أو بندولية أو خطية، الأمر الذي يتوقف في جانب منه على المنظور، وفي الجانب الآخر منه على الوظيفة أو الغاية. ويخضع التغيير، بصرف النظر عن إيقاعه أو شكله، في نهاية المطاف، لمبدأ كونه (بحسبان)، وهو قد يكون في الشأن الإنساني -بعكس الأحداث الطبيعية- مسألة قضاء وقدر.

وبالإمكان توقع احتمالات التنوع نفسها، في تطور الفكر الإسلامي، وفي تغير نقاط تركيزه، وفي مدى القضايا التي يهتم بها داخل أطر محددات تكفل وحدته وثباته، ومن هذه السمة يستمد ذلك الفكر تفرده، والقواسم المشتركة أو أواصر القربى بينه وبين غيره من الفكر الإنساني.

وينبع التنوّع من تاريخية الظرف الإنساني، بحقيقة كون الإنسان يعيش في مكان وزمان، وكلاهما نتاج تغير وتنوع مقدر من الأزل. ويرجع ثباته -من جهة

أخرىٰ- إلىٰ أساسه المزدوج في الأبعاد/ الاهتمامات الأبدية للظرف الإنساني، ولاسيما في المصفوفة غير المنغلقة للتوجهات والاستجابات، المعالجة لها في المصادر الإسلامية. وهذه هي التي نشير إليها بمفهوم المصفوفة المحورية، التي تمكننا -علىٰ سبيل المثال- من التمييز بين شكوكية ديكارت، وشكوكية الغزالي. فشكوكية الأخير -كما لاحظ بعض المفكرين المعاصرين بحق- لم تشك أبداً في أساسيات العقيدة الإيمانية .[1]

وندرك عبر تلك المصفوفة -علاوة علىٰ ما سبق- في عصرنا الحالي كما في الماضي- الحدود التي جعلت بالإمكان التمييز بين مؤلف عن صنوف الفكر الإنساني بالمعنىٰ الواسع للكلمة، مثل كتاب مقالات الإسلاميين في تراثنا التقليدي، ونظائره في الثقافة العلمانية الحديثة أو في تفريعاتها الأوروبية في العصور الوسطىٰ الكلاسيكية والوثنية أو في الثقافات الآسيوية المنوّعة.

وقد باتت إعادة استكشاف تلك المصفوفة المحورية واستعادتها، وصياغتها من جديد علىٰ نحو علاقي وحيوي، هي الروح المحركة الكامنة وراء الإحياء الفكري والثقافي الراهن بين المسلمين في عالم اليوم. ثم إن هذه الثوابت هي التي تمدنا بالخطوط الإرشادية الدائمة، لتفسير المضامين الوجودية والأخلاقية لنزعة إنسانية تعالج بعض القضايا التي تشغل الحداثة، مثل قضيتي: المساواة الإنسانية والامتيازات.

٢- قضايا وجودية وأخلاقية: تخليص الإنسان من بلاء البحث الفلسفي

الفلسفة فرع من فروع المعرفة الإنسانية، ابتدعه الإنسان؛ ليستمد منه المنهجية والمنطق في بحثه عن الحقيقة. ولا تغطي حقيقة أن ذلك المسعىٰ انتهىٰ في الغالب

(١) يطرح جوهان بومان فرضية أصلية حول علم إنسان إسلامي مترابط مؤسس علىٰ خطاب قرآني، ويأخذ من علم الكلام نموذجاً يلاحظ من خلاله كيف تشكّل العلم الإسلامي في ضوئه. وجاءت ملاحظته الخاصة التي تعزز مقولتنا في هذا السياق في حاشية عرضية، علىٰ ما لها من أهمية.

إلىٰ التركيز علىٰ كيفية حدوث الأشياء، علىٰ حساب البحث عن أصلها المتعالي وفاطرها. ومعنىٰ هذا أن الفلسفة ظهرت إلىٰ الوجود لمعالجة بعض الأسئلة التي هي في بؤرة اهتمام الدين.

بيد أن العلاقة بين الدين والفلسفة هي في الحقيقة علىٰ النقيض فيما يتعلق بلغة الأسئلة التي تثار والإجابات التي تُقّدم، ففي حين أن فن إثارة الأسئلة، وتتبُّعها منطقياً وبشكل نظامي، هو في التحليل الأخير، فن تجريد من الحياة، فإن الدين ينظر للإنسان بوصفه كلاًّ متكاملاً لا يتجزأ، يندرج عقله ضمن كليته، ويخاطبه بشأن جوانب محددة من الحقيقة الواقعة.

ومعنىٰ ذلك، أن الفلسفة هي -في الأساس- وسيلة في البحث عن حقيقة الواقع، قد تحقق مقصودها أو تفشل في تحقيقه، الأمر الذي يعتمد علىٰ الجوانب التي تختار معالجتها، فهي قد تخوض فيما بوسعها الخوض فيه، وقد تخوض فيما لا طاقة للعقل الإنساني بالخوض فيه. ومع ذلك يظل مجالها -في نهاية الأمر- مرتبطاً بمدىٰ العقل الإنساني والإجابات التي قد يصل إليها، والتي تظل علىٰ الأرجح مهما كانت درجة بلاغتها إشكالية وتخمينية، ولا حجية يقينية تذكر لها تقتضي الالتزام بها؛ فهي تصدر من العقل، وتقف دعواها عند الاحتكام إليه.

ومع ذلك، فإن من طبيعة العقل أن يحلّق فيما وراء مداه، سواء في سياقه الدنيوي أو في محدوديته، وترجع هذه القدرة للتخيل أحياناً، وللذاكرة في أحيان أخرىٰ. وعلىٰ ضوء حقيقة أن تحليقات الخيال ومثيرات الذاكرة تُعبِّر عن شيء ما يتجاوز الوعي المجرد، فإنه لا يوجد في الحقيقة أي شيء مُلْغِز بخصوص أي منهما في الرؤية الإسلامية للإنسان؛ فهي -في تلك الرؤية- صور من تعبيرات ودوافع النفس التي واجهناها من قبل، ونواجهها هنا مجدداً في الحياة الدنيا وفي الحياة السرمدية.

ومن طبيعة الروح -التي هي النفس- أن تهتم بالأسئلة التي تخصها، وفي مقدمتها تلك المتعلقة بخلقها ومصيرها وابتلائها. وتشكل تلك الأسئلة عقدة الفلسفة، فهذه هي الأسئلة الأساسية أو الوجودية التي يتعطش الإنسان لمعرفتها، ولا يستطيع أن يأمل في معرفتها على وجه اليقين، لكونه مخلوقاً ولد في زمان. ومن ثمَّ لا يستطيع أن يعرف بشكل مباشر شيئاً عمّا بين الأبعاد الواقعة فيما وراء حدود زمن إدراكه، سواء تلك التي تتعلق بالكيفية التي جاء بها إلى هذا العالم الدنيوي أو برحيله منه. وما لم تكن هناك وسيلة للمعرفة بها خارج المدى المحدود للخبرة الإنسانية، فإن تلك المسائل ستظل مفتوحة للأخذ والرد، وموضوعاً متروكاً للتخمين الإنساني الفلسفي.

بيد أن ترك تلك القضايا التي هي في صميم بوصلة الحياة الدنيوية، للتخمين، يشكل في الرؤية الإسلامية للإنسان انحرافاً عن جوهر نظام عادل، فالخليقة لم يقدر لها أن تختبر بما هو فوق استطاعتها، بكرم من خالقها الرحمن الرحيم. وتأسيساً على ذلك، فإن الأمر الذي يعطي الرؤية الإسلامية للإنسان ثباتها، هو حقيقة أنها نمت في إطار تلك المصفوفة المحورية، التي تأخذ الإجابات التي قدمها الوحي للأسئلة الوجودية، على أنها مسلّمات.

ويعالج الوحي تلك الأسئلة الأساسية المتعلقة بخلق الإنسان بأسلوب بسيط وموجز وقاطع، ويرسي أول ما تنزل من الوحي على النبي ﷺ مكانة هادفة وعلاقية فريدة للإنسان في الكون المخلوق. يقول الله تعالى في سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العلق: ١-٨]. وبخصوص تهذيب المعرفة، يقول سبحانه وتعالى في سورة القلم: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١]. ويقول جل وعلا في سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ۝٢٨﴾ [فاطر: ٢٨].

فمن نقطة البداية، نجد أنفسنا أمام الإنسان، بوصفه كائناً حياً مزوداً بقدرات للإنجاز الأخلاقي والفكري، حباه الله خالقه وراعيه بها أصلاً، مستدلاً عليها من أصله المكرم، ومراداً بها أن تستخدم في الخير. إلا أننا نوجه على قدم المساواة إمكانية لزيغ وشيك عن الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، بما يترتب على ذلك من طغيان واستغناء. ونأتي إلى النقطة المفصلية، وهي يقينية البعث والرجعى إلى الله. وهكذا تُبين أولى آيات التنزيل بداية مسيرة الإنسانية، لتصل إلى أوجها في مسيرة الحياة الدنيا، إلى مفصل يقيّم فيه ناتج القراءة، ويحصل الإنسان على الجزاء الأوفى الذي يستحقه. يحتل مصير الإنسان وبعثه موضع الأولوية في خطاب وجودي قائم على وعي عقلي، والشواهد القرآنية على ذلك كثيرة، ويمكن أن نشير إلى بعضها، وفيما يتعلق بالرجعى إلى الله، يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨].

ويقول في السورة ذاتها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١]. ويقول في سورة فصلت: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ٢١].

ويقول في سورة يونس: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ [يونس: ٤]. ويقول في السورة نفسها: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٦].

ويقول في سورة مريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠]. ويقول في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]. ويقول في السورة نفسها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥].

وفيما يتعلق بالتسلسل المنطقي لما بعد الموت، يقول في سورة العنكبوت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٧]. ويبين أن الموت يعقبه البعث والنشور يقول الله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٦].

وحول ابتلاء الإنسان في هذه الحياة الدنيا، يقول الله تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥]. ويقول في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

ويبين أن الرجعىٰ إلىٰ الله تعالىٰ مرتبطة بذلك الابتلاء. يقول الله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المائدة: ١٠٥]. ويقول في سورة المؤمنون: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ويقول في سورة الجاثية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الجاثية: ١٥]. ويقول في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٣]. ويقول في سورة النور: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾ [النور: ٦٤].

ولمّا كان البعث حدثاً يقع في مستقبل غير منظور -كسابقه المتعلق بخلق الإنسان في الماضي البعيد للإنسان- فإنه لا يمكن معرفته بالتجربة الآنية أو تجسيده

مادياً والتثبّت منه مباشرة؛ فهو يختص بعالم الغيب، الذي ينبغي الإيمان به، لا سيما أن العلم به آت من لدن العليم الخبير. يقول الله تعالىٰ في سورة النمل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ [النمل: ٦]. ويقول في سورة التحريم: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: ٣]. ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة الملك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١٢ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٢-١٤]. ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة النساء: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ۝١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢].[1]

ولا يمكن -في الرؤية الإسلامية- أن يكون مثل هذا الإيمان اعتقاداً أعمىٰ، بل لا بُدَّ أن يكون معقولاً ومسبباً، وهذه سمة متضمنة بالفعل في الأمر الإلهي (اقْرَأْ) وفي مقتضياتها ولوازمها. ومن ثم، فإن هذا الأمر تكرر في القرآن في سياقات مختلفة وباقترابات متعددة الزوايا. وعليه، فإن الرجعىٰ إلىٰ الله هي التتمة المنطقية للموت، وهي تتحقق بالبعث.

ودون وضع الموازين القسط ليوم القيامة؛ إذ توفّىٰ كل نفس جزاءها العادل، ولا يظلم أحد فيها نقيراً، لن يكون هناك أي معنىٰ لكدح الإنسان وسعيه في هذه الحياة الدنيا. يقول الله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء: ٤٩]. ويقول سبحانه في سورة الإسراء: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧١﴾ [الإسراء: ٧١].

---

(١) لا نناقش هنا مسألة مصداقية المصدر وموثوقية قناة توصيل رسالته، وهما مجالان مستقلان للبحث، ولكننا نفترض ذلك. فالمجال الأول يغطىٰ ببحث مفهوم الإله في الإسلام، والثاني خاص بمفهوم النبوة، ولا سيّما في سيرة النبي محمد ﷺ.

ومغزىٰ المفردة القرآنية (فتيلا)، أنه أياً كانت ضآلة الفعل أو القول، فإنه سيدخل في الحساب. يقول الله تعالىٰ في سورة الزلزلة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ⑥ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ⑧﴾ [الزلزلة: ١-٨].

ومن الأهمية بمكان، التأكيد هنا علىٰ أن العدالة الإلهية -في الرؤية الإسلامية- تتم في إطار الرحمة الشاملة والكرم والمنّ الإلهي. يقول الله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ⑩﴾ [النساء: ٤٠]. ويقول سبحانه في سورة الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ⑯⑩﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والمراد بانعدام معنىٰ للحياة فيما لو لم يكن هناك حساب عادل في الآخرة، أن كل ما له معنىٰ مرتبط بالحق، وكل ما هو عديم المعنىٰ مرتبط بالغرور واللهو واللعب. ومن الشواهد القرآنية علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ في سورة الحجر: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وقوله سبحانه وتعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقوله في سورة ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقوله جلَّ وعلا في سورة الدخان: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ㊳ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ㊴﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

ولمّا كان الإنسان بالتعبير القرآني الوارد بسورة الانشقاق ﴿كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ⑥﴾ [الانشقاق: ٦]، فإنه يتحمل نصيبه من الابتلاء في حياته الدنيوية المؤقتة، انتظاراً لرجعىٰ عادلة إلىٰ الله تعالىٰ.

وقصارىٰ القول: إن الخلق، وإعادة الخلق، والحياة والموت، والساعة (البعث والحساب) كلها حلقات في سلسلة متماسكة ومتواصلة، تجعل لكينونة الإنسان جوهراً، وبنية أساسية، ونظاماً.

ومن الشواهد القرآنية علىٰ ذلك قول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]. وقوله سبحانه في سورة يونس: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٦]، وقوله في سورة القصص: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠]، وقوله في سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [الروم: ١١].

وفي غيبة هذا المنظور، والغفلة عن تلك الآصرة الوجودية، والارتباط بالخالق سبحانه وتعالىٰ، وببداية ونهاية وآخرة، لا تفقد الحياة توازنها فحسب، بل تنتفي إنسانية الإنسان بحد ذاتها.

وإذا كان ما سلف بيانه يقدم الإجابات المحورية المتعلقة بالوجود، فإن اللاشيئية أو فلسفة العدمية، تغدو عديمة المعنىٰ في إطار المحددات الثقافية للرؤية الإسلامية، فمعرفة الإنسان فيها ببدايته ونهايته، وبوجوده ذاته في الحياة الدنيا ليست مؤسسة علىٰ مجرد تخمين من جانبه. وكما أن الإنسان مدين لربه في خلقه، فإنه مطالب في معرفته بالاهتداء بالحكمة المنزلة من لدن الحكيم الخبير سبحانه وتعالىٰ.[1]

---

(١) يتعين هنا ملاحظة أن الإشارة إلىٰ المعرفة الربانية المطلقة مصحوبة في الأغلب الأعم بالاستجابة لحاجات خلقه. فهو سبحانه وتعالىٰ (السميع الحكيم). ويعزز ذلك بُعداً آخر من أبعاد الآصرة التي تربط الإنسان بخالقه، الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد. يقول الله تعالىٰ في سورة ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

وحول نهاية حياة الإنسان وبلوغ الروح الحلقوم، يقول سبحانه وتعالىٰ في سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٥]. وحبل=

وتفرز مثل تلك المعرفة يقينيتها الخاصة، بحكم تعلّقها بيقين متجاوز لمحدودية الإنسان، وبوسع الإنسان -بما أنعم عليه الله به من سمع وقدرة على الفهم- أن يتعرف صوت الوحي ويسلم به عبر تراث النبوات. ومع ختم النبوات، صارت تلك المعرفة المنزّلة من عند الله تعالى تامة وكاملة ومحفوظة بكل جلاء، ليقرأها الإنسان، وينصت إليها، ويتدبرها. وهي بالإضافة إلى ذلك، وكما أشرنا سلفاً، صوت جلي، لاتساق خطابها مع منطق الإنسان وعقله، وتتعزز مصداقيتها بتناغم محتواها مع الفطرة الإنسانية.

بيد أن الإجابة عن تلك الأسئلة الوجودية بما يشبع الفضول المعقول للإنسان غير كاف بحد ذاته، لتهدئة أوجه قلق أخرى لديه. فما أن يعرف الإنسان بدايته ورجوعه، ويدرك أنه مخلوق لغاية وليس عبثاً، وأنه تمشياً مع ذلك، سيحاسب على عمله ونيته، فإنه يحتاج إلى معرفة المعيار؛ فأعمال الإنسان بوصفه كائناً أخلاقياً، تستدعي اللوم أو الثناء.

وفي الوقت ذاته، فإنه ما دام للحياة معنى، فإنه لا محل للحياد أو للاأخلاقية في مسيرة تحقيقها. وإلى جانب البعد الوجودي، يوجد بُعد مُلحّ مكافئ له، متعلق بمسألة القيم. والسؤال الجدير بالطرح هنا أنه في عالم الظاهرات الدنيوي، الذي يمثّل التنوع والتعدد، القاعدة فيه، كيف يمكن التوصل إلى معرفة بأية درجة من اليقين حول المقياس والمعيار الذي يميز بين الحق والباطل، وبين الخير والشر؟.

= الوريد شريان ينقل الدم من الوتين إلى الرأس، وهما شريانان على جانبي الرقبة، وانضغاط أيهما يسبب غيبوبة. ومعنى ذلك، أن الله تعالى أقرب إلينا من محور وعينا ونابض حياتنا.

وحول العلاقة بين الله السميع العليم وخلقه يقول سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]. ويقول في سورة سبأ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٥٠]. وقرب الله تعالى من عباده المتقين المحبين له والمحتاجين إليه، هو واحد من الاستجابات الربانية المتسامية.

فلو تُرِك الإنسان لنفسه، فإنه يبتغي ذلك في اللامتناهي والنسبي، مما يجعل المقاييس كلها خدعة فحسب، والبديل هو أن يوحّد المقياس أو يجعله مطلقاً. وهنا يظل السؤال المهم: أي مقياس؟ ليس ثمة ما يمكن به التوصية بأن توكل مثل تلك المهمة الشاقة لشخص أو لفريق من البشر دون غيرهم، فحينها سيكون الأمر في نهاية المطاف موضع دعاوىٰ متنافسة، دون وجود ميزان للترجيح بينها، إلا فرضها بالقوة. وبدلاً من أن يتأسس مثل ذلك المقياس في شؤون البشر علىٰ الحق، فإنه يفسد بكونه عارياً بذاته عن الصواب؛ فهو لا يمكن أن يكون إلا بداية لتشكُّل عقيدة لا برهان عليها، ولإطلاق العنان للطغيان في الشؤون الإنسانية. وعندها، وتجنباً للفوضىٰ والاسترسال في تلك الدعاوىٰ، تظهر الحاجة إلىٰ استقاء المقياس من مصدر متجاوز للتعددية والتنوع، يمكن أن يضع الموازين التي يمكن من حيث المبدأ أن تكون ملزمة للجميع.

وثمة مقياس كامن في فطرة الإنسان، ولكنه غير كاف بنفسه، فالإنسان يسلم بالحاجة إلىٰ ميزان من مصدر خارجي، وينبذ أيّة دعوىٰ ليست من حقه، وهو يسعىٰ للحياة وفق نموذج لعدل الحق، وحق العدل، فلنتذكر هنا أن الحق هو أساس وجذر القيم كلها، وأن ذلك العدل ملازم للحق، وهو مطيته وغمده. ولهذا السبب، فإن ذكره يأتي عادة في صيغة الإثبات بوصفه وسيلة لإحقاق الحق، ولنتذكر أيضاً أن الحق اسم من أسماء الله تعالىٰ وصفة من صفاته، وعلامة علىٰ إرادته.

فحول الحق، يقول الله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحج: ٦]. ويقول في السورة ذاتها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢]. ويقول في سورة لقمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٠﴾ [لقمان: ٣٠]. ويقول في سورة النور: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور: ٢٤-٢٥].

وحول العدل، يقول الله تعالىٰ في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: ٩٠]. ويقول في سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة: ٨]. ويقول في سورة الأعراف: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩﴾ [الأعراف: ١٥٩]. ويقول جلَّ وعلا في السورة ذاتها: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٨١﴾ [الأعراف: ١٨١].

ويشير القرآن الكريم للاستقامة في القول والفعل بمفردة (الصدق) المشتقة بصيغتها المطلقة وغير المتعدية، علىٰ شاكلة اشتقاق الحقيقة من الحق؛ فالصدق فضيلة بوسع الإنسان اكتسابها. أما الحق فهو الغاية والهدف الذي يجب السعي من أجله، والمقياس الذي يتثبت به الإنسان من قيمة أعماله، ويبحث الإنسان بسعيه إلىٰ الحق، عن السلطة التي تلزمه، ويؤكد بسعيه هذا أخلاقيته، ولا بد أن تكون السلطة الوحيدة الجديرة بإخلاصه هي السلطة الأولىٰ بتحديد شروط مثل ذلك الإخلاص في ساحة يعدّ ولاء الإنسان فيها لله ورسوله هو جوهر الإيمان بالله تعالىٰ. والفضيلة هي في تجسيده في أرض الواقع، فالدين هو ذلك الإحساس الأساسي لدىٰ الإنسان بأنه مدين لربه، وهذا الإحساس هو الذي يشكل طريقة الحياة ويعطيها معنىٰ.

ومع بحث الإنسان عن مرتكزات أخلاقيته، لا يعود هناك مجال لأنصاف الحلول، فإما أن يكون الإنسان معترفاً بأنه مدين بالفضل لربه أو غير معترف بذلك؛ فهو لا يستطيع تجاهل أو غض الطرف عن حياته علىٰ الأرض في هذه الحياة الدنيا، وبالتمييز بين الحق والباطل، ولا أن يعيش في دائرة التردد والظن والحيرة، مخافة أن يقوده ذلك إلىٰ حتفه. فلا يمكن أن يكون هناك حياد بالنسبة للقيم، ولا أن

يكون هناك مصدر آخر لتصورها، غير الله تعالىٰ الخالق للإنسان والراعي له، ومَنْ إليه الرجعىٰ، وأمامه سيكون الحساب الأخير يوم الدين.

وهكذا نلمس في هذه الرؤية منطقاً قاطعاً، وتناسقاً بسيطاً وملزماً؛ فمصدر الحياة كلها يجب أن يكون هو مصدر ميزانها النهائي. والتقاعس عن التسليم بذلك، يفضي إلىٰ فوضىٰ في الوجود، يقول الله تعالىٰ في سورة الأنبياء: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ويقول في سورة المؤمنون: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١].

ومعنىٰ ذلك، أن سبب الفساد في الأرض هو جحد وحدانية الله تعالىٰ، واتخاذ أرباب متعددين من دونه، بما يترتب علىٰ ذلك من تعدد لمقاييس الحقيقة، وتشوشها، ويعزز ذلك إشارة القرآن الكريم إلىٰ فساد ناتج عن اتباع الأهواء، والحق أن اتخاذ الإنسان المخطئ هواه مقياساً، يمثل شكلاً من تأليهه لنفسه. يقول الله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤]. ويقول جلَّ وعلا في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وتكمن قيمة الإنسان في هذا الميزان، بالأساس، في تقوىٰ الله تعالىٰ، وتقاس هذه القيمة قبالة مصدرها الأول، وليس قبالة أوصياء أو وسطاء. يقول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

والإنسان بوصفه وُجدَ لتحقيق غاية، فإن أعماله، شأنها شأن كينونته، تستمد قيمتها بدءاً من إنجازاته وسعيه علىٰ مقياس الإخلاص لخالقه وراعيه. وبوزن الإنسان نفسه وأعماله بهذا الميزان الأساسي، فإن البشر يغدون سواسية لا فضل لأحد منهم علىٰ غيره، لا بمولده، ولا بمركزه، ولا بميزة غير منصفة عليهم.

وفي مجال التقوىٰ والعمل الصالح متسع للتفوق، ومجال للتميز بالنسبة لكل من الأفراد والأمم؛ إذ لا يوجد حد للسعي، ولا سقف للإنجاز. وحالة الإنسان -فيما وراء ذلك- هي حالة مساواة حقيقية، تعود لخلق الإنسان، ولفضل الله عليه.

ولا مصدر لقيمة حقيقية للإنسان ذاته إلا تلك النابعة من الكرامة الأولية المحرم المساس بها، التي امتن الله تعالىٰ بها عليه من لحظة خلقه.

والمراد بذلك أن الإنسان ليس مصدر قيمة في نفسه، حتىٰ وإن كان لديه ميل للتكبُّر وادعاء ذلك، بذريعة البسطة في المعرفة أو الثروة أو الإنجاز المادي. يقول الله تعالىٰ في سورة القصص: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩﴾ [القصص: ٧٦-٧٩]. ويقول سبحانه وتعالىٰ في سورة العلق: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧].

فالكرامة التي يدعيها الإنسان قبالة نظرائه، مكفولة له بالنفخة الإلهية ذاتها التي هي مصدر حياته، والتي تمنحها القداسة، وليس لسبب نابع منه بحد ذاته؛ فالنفخة الإلهية التي نفخت فيه، هي التي حولته من مادة عضوية وغير عضوية إلىٰ مخلوق جديد مكرم. وبالإضافة إلىٰ ما سبق، فإنه بفضل الخالق الرحمن الرحيم، خلق الإنسان في أحسن صورة، وزُوّد بكل المَلَكات التي تجعله جديراً برسالته التي خُلق من أجلها.

وقصارى القول: إنْ كان للإنسان أية مكانة خاصة ينفرد بها من بين المخلوقات، ويمتاز بها، فهي نابعة من اصطفاء الله تعالى له على غيره من المخلوقات للقيام بدور خاص، هو الخلافة في الأرض. والإنسان مدين بخلقه، وبما يتمتع به من امتيازات، لربه الحاكم في أمره كله، والإنسان مكلّف بأن يقوم بواجب ذلك الاصطفاء بثقة وأمانة وعزيمة، وليس بتكبُّر ولا بإفراط.[1]

وخلاصة الطرح السابق، أن الكرامة متأصلة في الإنسان، بحكم بنيته الجسدية والعقلية والنفسية والروحية، وبحكم الرسالة التي اختصه الله للقيام بها، وما تقتضيه من ملكات. ويعزز تصور الكرامة الإنسانية على هذا النحو، مبدأ المساواة الإنسانية الأساسية؛ فاختبار إنسانية الإنسان يكمن في طريقة احترام البشر الواعي لتلك الكرامة، وكيفية استخدامهم لوضعيتهم المميزة أو إساءة استعمالهم لها، والفيصل في انتهاج أي من السبيلين هو حرية الاختيار لدى الإنسان، ووعيه بطبيعة اختياره، وبالعواقب التي تترتب عليه.

ويمكن استخلاص الأبعاد الثلاثة للخلافة الأخلاقية من الرواية القرآنية لقصة الخليقة، وهذه الأبعاد هي: الإدراك والإرادة، وتربط بينهما نواة قيمية متماسكة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية هما بمثابة الإقرار الذاتي بوحدانية الله، بوصفه الخالق والحكم والراعي، وهما جوهر تلك النواة. وهذا هو عهد الإخلاص لله تعالى الذي يمثّل الحبل السري الذي يربط الإنسان بمصدر حياته، وبمثواه الأخير، وبالدروس التي يمكن البحث عنها ومعرفتها من أمر الخلق.

---

(١) تستدعي هذه المفاهيم بترابطها حقلاً دلالياً غنياً. فمفهوم (الثقة) ونظائره، تُستخدم للتعبير عن منظومة مرتبطة بالإيمان، تشمل مفاهيم: الوفاء والعزة والإيمان والعزيمة والثبات والرشاد والمثابرة. وبالمثل يستدعي مفهوم (الكبر والإفراط) مفاهيم: الكبر والاستكبار والغرور والبغي والطغيان. ونموذج المجموعة الأولى من هذه المفاهيم نجده في الأنبياء؛ إذ إنهم يصنفون على أنهم (أولو العزم). أما مجموعة السمات السلبية، فهي ابتلاءات مصدرها إبليس. والإنسان يصير عرضة لكيد الشيطان، ولما يدعو إليه بالغفلة وبإهمال تزكية النفس، ومن ثم ينزع عنه لباس التقوى، ويتعرض لوسوسة الشيطان، وينخر الغرور في قلبه.

وثمة لحظتان بارزتان في خبرة الخليقة في صميم الوعي الإنساني، وحيويتان لإرادته في بداية حياته في طورها قبل الطبيعي وقبل الدنيوي. **الأولى** هي (اللحظة الكونية)، والثانية هي (اللحظة الوجودية)، وكلتا اللحظتين مترابطتان، وتلتقيان في ميزان يوم الحساب. وتؤشر آية الأمانة، وآية الشهادة، على الميثاق الأصلي بين الله تعالى وذرية آدم في العالم ما قبل الطبيعي، وهو مثال معين للحظة الأولى.

أما **اللحظة الثانية** فتمثلها قصة خلق آدم، وغواية إبليس، وهبوطهما معاً وفي الوقت نفسه، إلى الحياة الدنيوية على الأرض، وهي تمدنا بنواة المنظور الوجودي. واسم آدم مشتق من كونه خلق من تراب، ونموذج آدم هو نموذج بشريته في بنيته الجسدية والنفسية والأخلاقية، جنباً إلى جنب مع نموذج رسالته على الأرض. وعبر الخطاب القرآني المتعلق بالخليقة، تتضح مسائل المسؤولية، وحمل الأمانة، والغاية من الوجود، ومصير الإنسان ومثواه الأخير، وعلاقته ببقية المخلوقات، بالتأكيد على سمو ونهائية تلك الآصرة الولائية التأسيسية، متمثلة في (العبودية لله). ويؤكد ذلك، كما رأينا من قبل، أن هذا الميثاق الأول هو النموذج الأصلي المحدد لكل ما تلاه من مواثيق، ومن علاقات، ومن ولاءات في مسيرة حياة الإنسان المؤقتة على الأرض.

وفي هذا السياق الذي يستدل فيه على الخلافة الأخلاقية، والتمييز الإنساني الواعي في إطار علاقات تتجاوز ما هو تاريخي، وما هو اجتماعي، ننتقل إلى بعد آخر من أبعاد الرؤية الإسلامية للإنسان الأخلاقي.

الإنسان الأخلاقي والمجتمع الأخلاقي

العيش في جماعة، الميل الفطري والأهلية

أ- المضامين الاجتماعية للخطاب المتعلق بالخليقة

تناولنا جوانب مفهوم الإنسان الأخلاقي من زاوية وجودية ورسالية جوهرية، وبقي علينا أن نتناول ذلك المفهوم في سياق نزوع الإنسان للعيش في جماعة؛ أي على ضوء وجوده العلاقي في مجتمع وسط آخرين، سواء من زاوية صورة الأنا/ الآخر الفردية، على المستوى الأفقي أو من زاوية الرابطات والجماعات التي تجمعها علاقة جوار.

وإذا نظرنا إلى الإنسان، على أنه لنفسه وفي نفسه -وهي استعارة لا تتمشى مطلقاً مع الرؤية الكلية الإسلامية- فإن قيمته الحقيقية تنبع من تسليمه بالإخلاص لبارئه وراعيه عبر "العبودية له"، وهذه العبودية هي المرتقى الذي يضمن تجسيد القيمة والمقياس، ونشرهما وشمولهما بين مختلف التكوينات الإنسانية. فالمجتمع يفترض التمايز، تماماً كما يفترض التعددُ التنوعَ، وتفترض القيمةُ التراتبيةَ، وتمثل العبودية في هذا الإطار، إعلان وتأكيد الامتياز والمساواة والرابطة. ففي سياق التنوع والتمايز والتراتبية، تُعدّ المساواة في الوضعية التعبُّدية الوجودية نواة لتحقيق القيم الاجتماعية الأخرى.

وثمة حاجة إلى طرح ملاحظتين هنا للتأكيد على علاقية هذه النواة بوجه خاص، ولمعالجة مضامين تأسيس الأخلاقية على مستوى وجودي للخليقة بوجه عام. ونود أن نلفت النظر- بتأسيس بحثنا لرؤية للإنسان من منظور قيمتين يبدو في الظاهر أنهما متعارضتان- إلى حقيقة وجود توتر في الحالة الإنسانية، ناتج من تجزئة القيم، بما ترتب على ذلك من إخفاق في رؤية كل منهما بحجمها الصحيح، وفي العلاقة الصحيحة بينهما.

وكانت لذلك عواقبه بالنسبة لتشكيل الشخصية والتصورات الإنسانية، وكذا بالنسبة لنوعية حياة مجتمع معين، وللمعايير السائدة للأخلاقية والإنسانية في عصر معين أو حضارة معينة. فقد شهد العصر الحديث تأبيداً لتصورات ممسوخة للمساواة في الكرامة الإنسانية بوصفها امتيازاً إنسانياً، وبين تفاضل البشر بتعددية مراتب الفعل الإنساني الأخلاقي في المجتمع. وبزعم عدم إمكانية الجمع بين المساواة في الكرامة وعدم المساواة بمعيار العمل، والقول بأن ذلك الامتياز يكون حكراً على قلة، تأبّدت تصورات ممسوخة أفضت إلى الانغماس باسم المساواة في أخطاء وفي أشكال شتى من اللامساواة.

وهاتان القيمتان (المساواة والامتياز الإنساني)، في المنظور الإسلامي، ليستا متعارضتين بالضرورة، بل هما مترابطتان على المستوى الأساسي الأسمى، على نحو يعزز القيمة الإنسانية ويكفل معايير الأخلاقية والإنسانية، ذلك أن كلتيهما مبنية على الاعتقاد بأن الإنسان قد خلقه الله، فالمساواة تكمن في سياق الوضعية التعبدية لرب العالمين. والامتياز الإنساني يلازم الحرمة المرتبطة بخلق البشر، من حيث البنية والرسالة.

وتتعلق الملاحظة الثانية بأساس الأخلاقية الإنسانية. فمع فقدان العصر الحديث لمرساه التقليدي، ومقايضته برمال الأخلاقية النفعية والبرجماتية المتحركة، اختل أساس الالتزام الأخلاقي. ومع تحلل الإطار المرجعي الدائم الذي يمكن التعويل عليه، لم يعد من الممكن تسويغ نظام قيم آخذ في التحول، ولا تقديم معيار لربط القيم ببعضها بعضاً .

ومن وجهة نظر إسلامية، فإنه من دون فرضيات خلق الله للإنسان، وقصة خلقه، لا تعدو دعوى الإنسانية الحديثة لكل من المساواة والامتياز، أن تكون مسألة رأي يفتقر إلى أية حجية. وفي ظل هذا اللانظام المحكوم، على أحسن

الفروض، بأخلاقية موقفية، فإن تشكل الشخصية الإنسانية في زماننا الحالي، الذي يندرج في الكفاية المهنية لعالم النفس وعالم التربية، يتحول من نقيض إلىٰ نقيض، فهو يتأرجح من نقص احترام الذات علىٰ نحو مراوغ، والحطّ من قدر الإنسان، إلىٰ افتراض متغطرس خسيس ومضلل.

وبالمقابل، وبفرضيات الخليقة وخلق الإنسان، تغدو دعاوىٰ القيمة حقائق قابلة للتجسُّد، لكونها نابعة من مصدر تسمو سلطته من حيث المبدأ، ويرتضيها الجميع. (لا ينازع معظم البشر، بوجه عام، في فكرة الإله، مع المماحكة بخصوص تصوّره).

ويشكّل انتهاك القيم -بحكم أصلها ومصدرها المقدس- جريمة أخلاقية من الدرجة الأولىٰ؛ فالمسألة ليست أمر انتهاك لحق شخص واحد، ولا لقيمة إنسانية مجردة ليس لها تجسيد ملموس في أرض الواقع، بل تُمثِّل مثل تلك المخالفة للقيم انتهاكاً لأمر الخليقة الأصلي المؤسَّس علىٰ الأخلاقية. وهو أمر يقوم علىٰ الحق، ويكمل بالعدل، وهو فريضة افترضها الله علىٰ الإنسان، وهو ملزم في ضمير كل فرد علىٰ المستويين الفردي والجمعي، علىٰ نحو لا مفر معه، من حيث المبدأ، من الحساب عليه في نهاية المطاف.

وعلىٰ النقيض، من الأخلاقية الوسائلية التي تقوم علىٰ تأرجح القيم، واستعمالها في غير محلها، فإن الأساس الوجودي للقيم -في الرؤية الإسلامية- يكفل لها كلاًّ من التوازن، والتناسب، والمسوّغ الثابت الموثوق به.

وتنعكس هذه الرؤية للإنسان -التي لا تقبل في جوهرها بحل وسط بهذا الأمر- علىٰ تصوره لذاته، وعلىٰ شخصيته، وعلىٰ النظام العام الأخلاقي. وتصير بمثابة المحفِّز لكل صاحب ضمير -رجلاً كان أو امرأة- لأن يحتج علىٰ أي موقف يرىٰ أن العدل والحق يتعرضان فيه للخطر. وفي هذه البوتقة تتشكل رؤية الإنسان في تماميته، وفي كونه كائناً اجتماعياً.

وفي عصر الوعي بالنوع، فإن المصطلحات التي تتشكل حول الإنسان تؤشر على نزعة حصرية خاطئة من أساسها. فمع اعتبار الإنسان بؤرةً للخطاب، تغييبٌ للآخر، على ما يبدو، سواء عن قصد أو عن غير قصد، والآخر هنا هو المرأة. وبعض صور إغفالها متضمنة في المصطلحات التي نستخدمها تارة، وفي استعمالنا لها، والنية المصاحبة لها تارة أخرى.

وهكذا، فإن الخطاب الإنساني في ظاهره في الأدبيات الهجينة للوثنية الكلاسيكية الغربية ونظيرتها الحديثة، تتركز -بحق- حول النبيل الأرستقراطي في روما القديمة، وعبء الرجل الأبيض بين ورثتها الحديثين.

وفي كلتا الحالتين تنتشر الحواجز، سواء تواصلت على خطوط: النوع أو الجنس أو العرقية أو الطبقة أو أي حامل مفاهيمي حصري آخر، مستلهم من منطق كبرياء زائف، وهو الكبرياء ذاته الذي سقط به إبليس وحلّت عليه اللعنة، فإبليس سوّغ رفضه السجود لآدم، امتثالاً لأمر الله، على أساس من إحساسه بالتفوّق. يقول الله تعالى في معرض بيان ذلك: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

ومن ذلك الحين، صار ذلك منطقاً يمكن أن يصاب به الإنسان، مما يغيم على فطرته التي فطره الله عليها، ويفسد النعم والمَلَكَات التي مَنَّ الله عليه بها. وبذا فإن إنكار المساواة، وإساءة استعمال الامتياز بابٌ للسقوط، يمكن أن يقع الإنسان فيه ما لم يتقِ الله تعالى. ويصير منطق ذلك السقوط مجرد سمة ثقافية تتحدد بتقليد أو بآخر في لحظة زمنية معينة، وتضرب بجذورها بشكل جماعي، لتعبِّر عن نفسها، وتتجسد في مبادئ الجماعة وممارساتها، مثل: الرق، والإقطاع، والعنصرية، والاستعمار.

وعلى النقيض من ذلك، يتحدث القرآن عن الإنسان، وعن عملية الخلق، وعن ارتباط الكيانات الإنسانية ببعضها، أفراداً وجماعات، بلغة عامة ومجردة،

ومحددة ومباشرة -في الوقت نفسه- بما يكفي لفهمها وإدراكها بيسر، وهو يحقق ذلك باستعارات يمكن عبرها للعقل أن يفهم المشبّه بالمشبّه به عبر المضامين الأصلية المصاحبة له بوجه خاص. وبوسعنا أن نؤكد بحق، بأن المفاهيم المفتاحية كافة التي تشكل الرؤية الإسلامية، بما فيها الرؤية الإسلامية للإنسان غنية بكل معنى الكلمة، وكنز تام بذاته، يحمل معانيه ومضامينه بداخلها. وهذا هو الذي جعل الضلاعة اللغوية الأساسية سمةً أساسيةً للمعرفة الإسلامية الحقيقية، فتلك المعرفة تعدّ فتوحاتها المصطلحية محط دافعيتها ونقطة انطلاقها، لتأسيس أطروحاتها المنطقية والمفاهيمية والفكرية في لحظة ازدهارها. أما في لحظة وهنها، فإنها تقع في براثن الشكلية العقيمة أو الحرفية. ونصل بذلك إلى نقطة مهمة في تتبع أصل المفهوم وسيرته؛ إذ يبدو أنه كان من الأوفق البدء بتجليتها في مستهل الدراسة، ولكننا فضلنا استبقاءها للجزء الأخير منها، لإلقاء الضوء على ما تحمله من مضامين أخلاقية.

ولبيان عنصر الشمول في خطاب يؤكد على العمومية والمساواة والعالمية، تكفينا الإشارة إلى مفهوم (الإنسان) في لساننا العربي، الذي يستخدم للتعبير عن الجنس البشري برمته.[1]

(١) وهذه نقطة مفقودة بوجه عام في ترجمة معنى المفهوم في القرآن، ففي كل مرة تستخدم فيها كلمة (الإنسان) فإنّها ترد في اللغة الإنجليزية والفرنسية بمعنى رجل. وعلى الرغم من حقيقة أن مثل تلك المفاهيم جرى العرف على استعمالها على نحو يفيد التعميم، فإن التحيز ضد المرأة يظل متأصلاً فيها، على نحو ينفي عموميتها. وهكذا تجري ترجمة الخطاب القرآني الشامل الموجه إلى (الناس)، بصيغة الجمع للفظ (الإنسان) في كل مرة، بلفظة (يا أيها الرجال). وبذا تغدو دلالة الخطاب التعميمية الأساسية في مهب الريح، على شاكلة تضييع مفهوم الجنس البشري بترجمة لفظة (الإنسان) بلفظة (الرجل). ومن النماذج الجلية على ذلك ترجمة جولي لابيوم من الفرنسية إلى العربية الموسومة بـ(تفسير آيات القرآن الحكيم)؛ ففيها نجد لفظ (رجل) مقابل لفظ (امرأة) قد حل على نحو عفوي مَحل لفظ (الإنسان). وبالتبعية صنفت كل الآيات التي تختص بالجنس البشري بعمومه، على أنها مقتصرة على الذكور، وضاع المفهوم القرآني الأصلي.

ولا يتضمن مفهوم (الإنسان) أي تحديد للنوع. وهو يشترك في جذره اللفظي مع مفهومين وثيقي الصلة به: النسيان، والأنس أو الإتناس (العِشْرة والتماس الرفيق). وكما هو الحال بالنسبة للمفردات المهمة في المعجم القرآني العربي، فإن لفظ الإنسان معرف بذاته، وحافل بمضامينه المهمة.

ووضع الخطاب المتعلق بالخليقة داخل محدداته اللغوية الكافية، وتخليصه من أوجه الغموض التي اكتنفتها، شرطٌ مسبق للفهم التام لدلالتها المفاهيمية والأخلاقية. وللعودة بمفهوم المساواة الإنسانية إلى أصوله في خلق الإنسان، يكفي التدبُّر في لغة الخطاب القرآني لإدراك عدم ملاءمة صيغ تعبيرنا المعاصرة عنها.

ويتضح ذلك بدرجة أكبر فيما لو دققنا بأسلوب نقدي في مفاهيم أخرى محددة لعمليات الخلق والتكاثر وإعادة الخلق؛ إذ ندرك أنها هي أيضاً تؤكد على حياد أساسي بالنسبة للنوع، وعلى عمومية جوهرية. وتظل الوحدة الأساسية المخاطبة على المستوى الأكثر حميمية هي (النَفس)، التي تشترك في جذرها اللغوي مع لفظ (النفَس) والفعل (يتنفس).

وهي مع ذلك لا تتطابق مع النفخة الإلهية (الروح) التي نفخت في الصلصال أو الحمأ المسنون فبعثت فيه الحياة. يقول الله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]. ويقول في سورة السجدة: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٧-٩].

وتميز الأدبيات الإسلامية بين الجسد، والعقل، والنفس، والقلب، والروح. ويرى الغزالي أن النفس تقع في مركز وسط بينها. ودون دخول في دقائق هذا الموضوع، يمكننا أن نضيف هنا إلى ما سلف ذكره، في مستهل تناولنا لهذا

الموضوع، أنه إذا كان مفهوم الإنسان يشير إلىٰ كل متكامل متجسد، فإن النفس هي محل وجدانه وأحاسيسه، وملكاته ومواهبه الفطرية، وهي عرضة في الأغلب الأعم، للوقوع فريسة لضلالاتها ولهواها، ما لم تُصن بالرحمة الإلهية التي تحميها من نفسها.

وتترجم كلمة (النفس) عادة بالطابع الإنساني، وأحياناً بالروح (علىٰ الرغم من ملاحظتنا وجود مفهوم مميز للروح). ومن غير المحتمل أن تسهب رؤية إسلامية متشكلة في ظلال الروح القرآنية، في مماحكات لفظية دقيقة تتعلق بالغيب، امتثالاً للأمر الوارد في قول الله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

وامتثالاً للأوامر الإلهية المتكررة بالبحث عن آيات الله في الكون المنظور والمعروف الذي سخّره الله للإنسان، وتلمّس المعرفة العملية التي تُغني الإنسان في قيامه برسالته الكونية، فإننا نكتفي بذكر أبعادها وثيقة الصلة بالنفس.

وبالمقابل، وبما أن الخطاب الأخلاقي والاجتماعي في الإسلام، متضمن في التوحيد، فإن المضامين الاجتماعية للخليقة ترجعنا جيئة وذهاباً بين الدائرة الداخلية ومحيطها، فما الذي يمكن أن يكون أقرب إلىٰ الدائرة الداخلية من النفس؟ وما الذي يمكن أن يكون هو المتجاوز الأسمىٰ للإنسان من الأمة التي يرتبط بها؟ ولذا نقف وقفةً قصيرةً هنا لمزيد من البيان حول معنىٰ النفس بالنسبة للمجتمع، والعلاقات الاجتماعية والعالمية بين البشر في نهاية المطاف.

في مخاطبته للإنسان، بوصفه مخلوقاً عاقلاً ورشيداً، يستدعي القرآن (العقل) مع بؤرته في القلب، دون أي مساس بالعقلانية. يقول الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ

﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ويقول في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦].

وحين يخاطب القرآن الإنسان بوصفه مخلوقاً فطناً وصاحب وجدان، فإنه يخاطب النفس التي هي محور كينونته، وتتضمن بما أنها كذلك نوعاً من الجوانية والخلود، مقابل الفناء المرتبط بالجسد.(١)

فالنفس هي التي تقابلنا بوصفها موضوعاً للخطاب الإلهي، قبل أن ينمو العقل، وبعد أن تنتهي مدة وجوده المؤقت في هذه الحياة الدنيا، وكذا قبل تولد العمليات العضوية وغير العضوية للجسد، وعودته للتراب الذي خلق منه في بادئ الأمر.

ففي المرحلة ما قبل الطبيعية، كانت النفس هي أول من دعي للشهادة بالوحدانية لمالكها وخالقها سبحانه وتعالىٰ، وللميثاق المتعلق بالرسالة التي خُلقت من أجلها. ثم إن النفس هي التي نقابلها، تارة أخرىٰ في نهاية الحياة الدنيا، مع عودتها إلىٰ مصدرها وأصلها، وإلىٰ ربها عشية رحيل الإنسان من مثواه الأرضي. ويطوىٰ كتاب حساب ويفتح آخر، وتتصدر النفس علىٰ عتبة رحلة حياة أخرىٰ في عالم آخر. وفيما بين المرحلتين تحتفظ النفس بحيويتها بوصفها الموضع العقدي لنوازع ودوافع متعارضة؛ فهي تتوحد مع القلب، لتصير موضعاً لتطهير نوايا الإنسان أو لتعتيمها.

---

(١) يتعين هنا ملاحظة أن الرؤية القرآنية للإنسان تنظر إليه علىٰ أنه كلٌّ متكامل، لا علىٰ أنه كيان ثنائي أو متفرّع. ومن حيث الاشتقاق اللفظي، يشير مفهوم (بشر) ومفهوم (البشرية) إلىٰ الجلد والسطح والبشرة والجسد. إلا أن الاستعمال القرآني ينقل جانب التكامل والفنائية، ولا يشتمُّ فيه أي انقسام ولا أي تناقض بين دلالاتها الخارجية والجوانية علىٰ نحو ما نجده في الفكر الفلسفي والثيوصوفي. والتزام المنظور القرآني في رؤية الإنسان هو الذي يقي من إطلاق العنان للأهواء، الذي يُروج بفكر الثنائيات الذي يبرز أحياناً في ثنايا أدبيات إسلامية معينة.

وأخيراً نأتي لمفهوم (النفس الواحدة) الذي يؤكد على وحدة أصل البشرية، والذي هو مفهوم وثيق الصلة مباشرة بالخطاب المتعلق بالمساواة. يقول الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩]. ويقول في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٦].

فمن تلك النفس الواحدة خلق الله زوجها، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء، عبر أجيال لتعمير الأرض ووراثتها، وحمل الأمانة فيها، إلىٰ أن يأذن الله بقيام الساعة، ويعود الناس لرب العالمين.

وتشير الأمانة هنا إلىٰ الاستخلاف، وترد بالقرآن لفظة (خلائف). يقول الله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥]. ويقول في سورة يونس: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: ٧٣].

ويقول في سورة فاطر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: ٣٩].

ووردت في القرآن مفردة: خلفاء. يقول الله تعالىٰ في سورة الأعراف: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩]. ويقول في ذات السورة: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن

سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

ويقول في سورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].

وكل هذه المفاهيم مرتبطة بتصور رسالي للإنسان؛ بوصفه خليفة في الأرض، وتحتفظ الأبعاد الشكلية لمصدر الرؤية الإسلامية للإنسان بأهميتها على الدوام. فما دام كل البشر مخلوقين من نفس واحدة، فإن الرجال والنساء يشتركون في طبيعة واحدة، تصير أرضية خصبة ومادة للنمو والنضج، وتؤهلهم للأخلاقية والمسؤولية، والنفس هي محل تلك الأخلاقية، وهي موضع الخطاب الإلهي، وساحة خلود الإنسان.

والنفس بذاتها كيان حيوي وحركي يتجاوز مفهوم النوع وغيره من الفروق التي قد توجد بين أي فردين، على المستوى الفردي أو الجمعي. وعلى ضوء هذه الحقيقة، نجد أنفسنا أمام واحد من ثلاثة أحوال محتملة لتصنيف أي فرد بعينه، في زمن معين، حسب حالة كينونته الداخلية أو بالمقابل، وفق ميول نفسه. ويتوقف ذلك على أي حافز له الصدارة: النفس الأمارة بالسوء، أم النفس اللوامة، أم النفس المطمئنة، التي تتقيد وتتحدد بأعلى درجة تحققها في: النفس الراضية المرضية. يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥٣]. ويقول في سورة القيامة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ١-٢]. ويقول في سورة الفجر: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

والنفس الأمارة هي النفس الناخسة الطائشة. ولكونها مستقراً للهوى، فإنها تحث الإنسان دوماً على الفعل في المواضع التي قد تدعوه فيها النفس اللوامة إلى

الحذر؛ فالنفس اللوامة تستثار للاحتجاج والتدخل بضمير حي، وفقط حين تحاسب تلك النفس نفسها، وتصحح أخطاءها، وتستريح من وخز الضمير، فإنها تستعيد توازنها وتصالحها مع نفسها، وتغدو نفساً مطمئنةً راضيةً تنعم بالسلام الداخلي.

ولا تميز هذه الأحوال الثلاثة شخصاً عن آخر نفسياً فحسب، بل يمكن بها معايرة التقلبات التي قد يمر بها شخص طبيعي في أطوار حياته. وبذا، فإن الطابع الإنساني والقابليات الإنسانية واحدة بالنسبة لكل البشر.

وفي المقابل، وللسبب نفسه، ولربط المركز بالمحيط، يمكننا أن نخلص إلىٰ القول بأنه من الراجح أن المجتمع الذي تُترك فيه النفس الأمارة طليقة العنان، فإنه ينحط ويتفسخ، ويستعبد للأهواء، وتقهره طواغيت عديدة، بما فيها طغيان النفس. فإذا ما استولت علىٰ مثل ذلك المجتمع أزمة ضمير، ومرّ عبر مرحلة تقويم، فإنه قد يواصل الاستدلال علىٰ النزاع والاضطراب الذي اتسم به في مشواره الجامح، ويتعثر في الآثار الجانبية لتحلله الغاشم، إلا أنه حينها يكون علىٰ طريق العودة، حين يقترب من الإصلاح والتعافي.

ويصدق التحليل نفسه في مجتمع تكون فيه معايير السلام العام عالية، وعناصر النظام العادل سائدة؛ فعندها يشهد توازناً نسبياً متحققاً أو يمكن تحقيقه بين الصالح العام الأخلاقي والمادي لأفراده، ويعرف إحساساً عاماً بالرضا، وميولاً إيجابية، ونوازع بناءة، وتوحداً عاماً مع الصالح العام، وبتعبير آخر: فإنه كما يتغلب الفرد علىٰ شعوره بالاغتراب، فإن المجتمع يتغلب علىٰ عوامل الوهن.

وهنا تأتي الوصية القرآنية بأن الإصلاح الأخلاقي هو شرط ومحفز للإصلاح الاجتماعي، وأن التغيير في حالة أي قوم يبدأ بتغيير ما بضمائرهم، وبمبادرة خاصة منهم. وهذه الوصية وثيقة الصلة برؤية الإنسان، وبتكامل الأخلاقية في النفس البشرية، وفي المجتمع الأخلاقي.

يقول الله تعالىٰ في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: ٥٣]. ويقول في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس: ٢٣]. ويقول في سورة الرعد: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد: ١١].

ومن الممكن تعزيز مسألة واحدية الجنس البشري، ووحدة هويته وتطابقها، مما يؤسس للمساواة بين كل أفراده، بمزيد من الشواهد من خلق الإنسان علىٰ المستوىٰ الطبيعي أو المادي والتطوري. وكما سلفت الإشارة بإيجاز في مقدمة الحديث عن مسألة خلق الإنسان، يوجد رصيد مدهش من شواهد الاستنارة في هذا الصدد، التي تشكل برهاناً دامغاً مستقىٰ من الحجية المستخلصة من كون القرآن منزّل من عند الله تعالىٰ. إلا أنه التزاماً منا بالانتقاء، قصدنا أخذ شواهدنا ممّا هو روحي، لا ممّا هو أحيائي؛ بغية التمييز بين اقترابنا، والتأكيدات التي تسوقها الحركة الإنسانية المعاصرة، التي تحفر في الدليل المادي لأصل الإنسان وتطوره، والتي اضطرت لاختزال أصل الإنسان في القردة، لتؤسس مقولتها عن الإنسانية المشتركة. وبصرف النظر عمّا اعترىٰ علم الأحياء وعلم الأنساب المعاصر من سوء فهم، فإنه مما لا يرقىٰ إليه الشك أن الأدلة الوفيرة في القرآن الشاهدة علىٰ خلق الإنسان، وهوية تركيبته، تؤكد مساواة الإنسان في هذه الخليقة الأولية، وتجذّرها[1].

(١) نوصي بمسح للأدبيات المتخصصة في هذا الصدد؛ ففي ضوء ما تحقق من إنجازات في البحث الأحيائي، وعلم الأجنة، وعلم الوراثة الحديث، تطورت نوعية جديدة من المعارف القرآنية في سبعينات وثمانينات القرن العشرين. وربما كانت الريادة في هذا المجال في مصر في أربعينات القرن العشرين لأحمد زكي وكمال الغمراوي. واكتسبت تلك الدراسات زخماً جديداً بنشر دراسة م. بوكاييل في سبعينات القرن المنصرم، وما حظيت به من اهتمام في مؤتمر طبي إسلامي عقد في وقت سابق. وفي حين تتسق قراءة الآيات المتعلقة بأطوار خلق الإنسان في القرآن، مع روح تعاليمه، ومع أدبيات تأويله، فإنها لم تنجُ من الجدل بشأنها، كما أشرنا من قبل.

وليست المساواة الإنسانية -في المنظور الإسلامي- مجرد إضافة تجميلية أو شيء تم اكتشافه أو اكتسابه في وقت متأخر، بل هي وضعية تأتي مع النفخة الإلهية في الجنين التي تدب الحياة فيه، مع تصويره وتسويته خلقاً من بعد خلق في الأرحام.

ويوحي تسلسل الآيات في هذا السياق بأن القيمة الجوهرية للحياة، وتلك القيمة بذاتها وكل ما ينبثق منها، مترتب على هذه النفخة. وفي سورة السجدة يأتي التذكير بذلك في إطار مميز للخطاب، يربط الإنسانية بمصدرها في تلك النفخة الربانية، ويربط الجزء بالكل. يقول الله تعالى في تلك السورة: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٦-٩].

وليست تلك المساواة الإنسانية دون مزايا ومسؤوليات تترتب عليها. وفي المقابل، قد تواجه مدرسة الإنسانية المادية صعوبة في تفسير مسوّغ تمتع الإنسان بوصفه مركباً من مادة عضوية وغير عضوية مخلوق من حمأ مسنون، بالمساواة والحقوق أو بأي دعوى لاستحقاق الكرامة، أو أن يُعد كائناً له قيمة. وقد يبدو الطبيعيون من بينهم أكثر تناغماً مع أنفسهم، في الوصول بفرضياتهم إلى منتهى منطقها، بتجريد الإنسان من مناقبه كلها.

وحين سعى القاضي أوليفر ويندل هولمت إلى تطبيق مبادئ التطور على فهمه لماهية الإنسان. ومن ثمَّ، الكيفية التي يجب أن يطبق بها القانون، فإنه كان يتحدث في سياق التقليد الليبرالي الأمريكي، ولكنه يستخدم كلاماً حمّال أوجه بالنسبة لمصادره؛ إذ يقول: "لا أجد مبرراً لأن ننسب للإنسان أهمية تختلف في نوعها عن تلك التي ننسبها لقرد الرُّباح أو لذرة رمل. وأعتقد أن شخصيتنا عقدة كونية، تماماً كما يحدث عندما تلتقي أشعة معينة، ويتخلل بؤرتها ضوء

أبيض، ولكن الأشعة تمر بعد تلاقيها كما فعلت من قبل. ولذا فإنه عندما تمر تيارات طاقة معينة أخرىٰ عبر نقطة الالتقاء، فإن العقدة الكونية قد تشكّل قياساً منطقياً، أو تحرّك ذنبها)".

وإذا كان الإنسان قد خلق في الأصل من نفس واحدة، وإذا كانت الزوجية التي انبثقت من تلك النفس الواحدة، قد أريد بها أن تكون هي معيار الخليقة، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا احتاجت البشرية لمسيرة طويلة وشاقة لتقبل دعاوىٰ أساسية من قبيل: التكامل بين الرجال والنساء؟ ولماذا ظلت حقوق الجماعات والمجتمعات، والدعاوىٰ المتبادلة بينها في مهب الريح في عصر يتباهىٰ بإنسانيته؟ بل حتىٰ كما يذكّرنا الاقتباس السابق، فإنه حين يسلِّم بقيم أساسية وعالمية، فإن البشرية تظل أبعد ما تكون عن تأكيد إنسانيتها. والإجابة لا تكمن فيما نعرف بقدر كمونها في مسألة هل نؤمن بما نعرف أم لا؛ فالإيمان يستحضر الإرادة والالتزام الذي يعيدنا إلىٰ سواء السبيل.

إضافة إلىٰ كون المساواة مغروسة في الأصول، فإنها وضعية علاقية بالأساس، غير نابعة من العلاقات بين البشر فحسب، بل أيضاً من علاقة مع مصدر متجاوز، مما يضفي قيمة علىٰ البشر، وعلىٰ علاقاتهم؛ فالمساواة بين البشر بوصفهم مخلوقين ترتبط في نهاية المطاف، بالتأكيد علىٰ النشأة الأولىٰ، وعلىٰ العلاقة بين الإنسان وخالقه وراعيه. وعبر التأكيد علىٰ التفرد المطلق للخالق سبحانه وتعالىٰ، وعلىٰ اختصاص الله وحده بالعبادة، يصير البشر متماثلين في المسافة الفارقة بينهم وبين خالقهم من جهة، ومتساوين فيما بينهم من جهة أخرىٰ.

وفي المقابل، فإنه حين تكون الخطوط الفارقة بين الإنسان والإله غير واضحة، ينفتح السبيل أمام تأليه الإنسان وأنسنة الإله، ويصير من السهل أن يتسلط بعض البشر علىٰ غيرهم من البشر، ويدّعون ألوهية مزيفة لأنفسهم.

وفقط بإفراد الله وحده لا شريك له بالعبادة، يغدو الإنسان مؤهلاً لأن يكون له نصيب من الإخاء ضمن أمة من نظرائه من المؤمنين. وبذا، فإن قضية المساواة، تتجاوز العرق والنوع، وتستمد جذورها من حقيقة خلق الإنسان، وكذا من علاقة الإنسان بخالقه. ويظل مجال الفضل ممكناً، داخل إطار تلك المساواة بالسعي على طريق التقوى والعمل الصالح، طلباً لمرضاة الله تعالى، وفي تلك الحالة تتشابك حدود المساواة مع حدود الفضل، ويحوز الإنسان مكانة مكتسبة بقدر المكانة التي وهبه الله إياها.

وليست المساواة النابعة من الرؤية الإسلامية للإنسان معادلة رياضية أو تجميعاً بارداً ومجرداً لأشياء لا رابط بينها، بل هي بالأحرى مساواة تتضمن شفقة إنسانية عميقة، وتوجهاً للاهتمام والمشاركة يُعبّر عنه بمفردتين قرآنيتين: **المرحمة والمودة**، وهي تستلهم الوشيجة الأساسية للأصل وللمصير.

يقول الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]، وهذه الواحدية والتعددية متوقفة هي الأخرى على سياق عملية ورواية تشير إليها. فبالإضافة إلى الخلق من نفس واحدة، خلق الله تعالى منها زوجها، ومن الذكر والأنثى تكاثر الجنس البشري. يقول الله تعالى في سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾ [الزمر: ٦]. ويقول سبحانه في مستهل سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وتكشف التفصيلات الكاشفة للمستبطن في النظام الكوني للتعددية، أن التنوع والاختلاف، والنظام الإنساني في تجلياته الاجتماعية والثقافية، ليس استثناء من هذه

القاعدة. يقول الله تعالىٰ في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢].

وتأتي الإشارة المحددة للنوع، بوضوح، في وضع وظيفي يتعلق بالتكاثر، فالأحياء وسيلة لغاية، فهي علم متعلق بالبعد المادي من الحياة، ومن غير الممكن بناء علم لأصل الإنسان دون الأخذ بعين الاعتبار الجوهر الذي نبعت منه الرابطة الإنسانية.

ويحتاج مبدأ الزوجية لقدر من التفصيل. وبانتهاج الاقتراب ذاته الذي التزمناه فيما سبق في تناولنا للخطاب القرآني، نلاحظ أن الزوجية هي المعيار عبر الخليقة كلها، وهي غير قاصرة علىٰ الجنس البشري، فالزوجية ثنائية غائية، وهي توجد علىٰ عدة مستويات؛ ثمة قران يوحي بالتكامل والألفة، وقرآن يوحي بالتكامل دون ألفة ضرورية، وإذا نظرنا إلىٰ الألفة علىٰ أنها رابطة عاطفية، فإن ثمة قراناً يُوحي بالتقاطب والتوتر.

والقران بين الذكر والأنثىٰ الآدميين هو قران زوج من النوع الأول. والليل الذي يعقب النهار، والشحنة السلبية والإيجابية في الإلكترون، والتزاوج في عالم النبات نماذج من النوع الثاني. والتلاقي بين الظلام والنور، وبين الحق والباطل، أو بين عوامل استدامة الفساد والطغيان والعوامل المنافحة عن العدل والحق، تمثل نماذج للنوع الثالث. والزوجية دليل -علاوة علىٰ ما سبق- علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، وعلامة وسبيل للتعددية والتنوع والتباين في الخليقة.

وحين يُذكر التنوع من منظور أحيائي، يصير الذكر والأنثىٰ عاملين للتكاثر الإنساني، وركيزة مشتركة لاستدامة الوحدة الاجتماعية الأساسية التي هي مهد تلك العملية. وهنا لا تقتضي المساواة في الوضعية تطابقاً في الأدوار، كما لا يتضمن التنوع في الدور أي تمييز سواء في الوظيفة أو في قيمة القائم به.

فالرابطة التي تجمع بين الرجل والمرأة هي بالأحرىٰ تُسنّ علىٰ مستوىٰ رسمي، كَعقْدٍ في سياق المجتمع. وتقوم هذه الآصرة التعاقدية علىٰ افتراض مسبق هو المساواة والتكافؤ بين الطرفين المتعاقدين، وعلىٰ التسليم بوجود قاعدة لآصرة تماثلية وتبادلية أعمق من الدعاوىٰ والالتزامات القانونية. يقول الله تعالىٰ في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وهكذا فإن الرابطة الروحية للرعاية والشراكة المتبادلة، هي التي تُكيِّف تلك العلاقة التعاقدية. وعليه، تشكل الأسرة النواة الأولية والضرورية للتمايز علىٰ أساس النوع، قاصر علىٰ سياق وغاية، ومعزز بشبكة حقوق والتزامات خاصة به، وفيما عدا ذلك التمايز في الدور، لا تأبه الرؤية الكلية القرآنية بمسألة النوع؛ فهي تغدو وظيفة لمجتمع معين، وثقافة معينة، وتختلف باختلاف الزمن والظروف.

وتبدأ الأطر المحددة للعلاقة بين البشر، بالتأكيد علىٰ الأسرة بوصفها نواة العلاقات والمسؤوليات، وتمتد منها لتشمل الأنساق المجتمعية التي تربط بين الرجال والنساء، بما يتسق مع متطلبات الخلافة والأمانة المشتركة في هذا الصدد. فمن تعاليم القرآن أن المؤمنين إخوة، يحمي بعضهم بعضاً، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويراقبون شأنهم المشترك. يقول الله تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: ٧١].

وتخضع العلاقة بين الرجال والنساء في المستوىٰ الأساسي الأعم، للمعيار نفسه الذي به تتحدد القيمة الفردية علىٰ المستويين الفردي والجمعي؛ إنها العلاقة التي يرتقون بها إلىٰ مصاف ما تتطلبه صلتهم بربهم، وضميرهم من السعي للوفاء بعهدهم معه، وإقامة دينهم. يقول الله تعالىٰ في سورة الشورىٰ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ

مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ [الشورى: ١٣].

ومن ثم، تعمم فئات التمايز الإنساني بين الجنسين، وبين الأنساق الجماعية، فهناك المؤمنون الذين ينهون عن الفساد، ويحثون على الخير، وهناك من يجحدون الحق، ومن يُلبسون الحق بالباطل، وينشرون الفساد بدلاً من الخير، وهناك المنافقون الذين يخالف ظاهرهم باطنهم، ويخالف قولهم فعلهم، ويعيثون في الأرض فساداً.

وتماماً كما أن هناك سُنة كونية ناظمة لمبدأ الزوجية في الخليقة، توجد سنة مماثلة ناظمة للتنوع في ساحة بشرية منتشرة؛ وهذه السُّنة تأتي في السياق ذاته الذي ينظّم قران المرأة والرجل، ولكنه على النقيض من ورود تفصيلات بالنسبة للعلاقة الأسرية، فإنه يأتي بصيغة عامة تتناسب مع امتداداتها وتحولاتها في النواة الكبرى.

وفيما عدا المجال ودرجة التفصيل، فإن ما يهمنا هنا هو المبدأ الناظم، على كل من هذين المستويين؛ فمبدأ المساواة ومبدأ التكامل الناظمان للقران الأساسي في علاقة النوع، يصيران هما القاعدة المتخللة لكل ما ينبثق منها من علاقات. وإذا كان الحب والمودة هو القاعدة في نطاق الأسرة، فإن التبادلية والتعارف، وإضفاء الرسمية على عملية التفاعل والتبادل على المستوى المؤسسي هي جوهر الإنسانية. ويعني ذلك، أن الدخول في علاقات تعزز أواصر الإخاء، وتغني نموذجاً للصالح المشترك، هي القاعدة في الدائرة الأوسع لإنسانية راجعة إلى ربها، وتبتغي فضله، بدلاً من أن تنجرّ إلى أنانيتها الضيقة، وإلى التمرّكز حول ذاتها.

ويقودنا الحديث الأخلاقي عن الإنسان المنبثق من أصوله الوجودية، إلى ملاحظة أخرى عابرة؛ فقد يكون علم الأحياء والثقافة هما الإمكان المعمم الذي

به يبدأ التاريخ البشري، ويمكن أيضاً أن يكونا هما -من جهة أخرىٰ- مصدر تعتيم معنىٰ ذلك التاريخ وتشويهه علىٰ نحو يلحق بالغ الضرر بالإنسان.[1]

والمخرج الوحيد، هو استعادة الوعي بوجود تلك السُّنة الإلهية الكونية، لمنح تلك القيمة ولتفسيرها علىٰ النحو الذي وردت به في التعاليم القرآنية، السابقة علىٰ ذلك التشويه الأحيائي، وعلىٰ تزييف الثقافة.

وتظل تصنيفات الجنس البشري في أوسع مدىٰ لها في التحليل الأخير، علىٰ ما كانت عليه من البداية، محددة بمحددات مفروضة علىٰ الرجال والنساء بوصفهم خلفاء في الأرض.

وتتصدر الخلافة -رمزياً- مجتمع المساواة والإخاء والرابطة الإنسانية، فهي رمز لوحدة الجنس البشري بكل ما يتضمنه من تنوع، وهي الخاتم علىٰ الحاكمية الأبدية لله الواحد الأحد، الذي ليس كمثله شيء، وهي بوصفها الامتياز الأساسي، والميراث المشترك، مشتركة بين الرجال والنساء جماعاتٍ وأفراداً، بوصفها منحة وتشريفاً من الخالق الذي هو الحكم والقاضي الأخير في كل شؤون الإنسان.

وقد تغفل قطاعات واسعة من البشر عن هذا المعنىٰ، ولكنَّ كثيراً من المخلوقات يسجدون مع المسلمين إجلالاً لتلك الحقيقة. يقول الله تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. ويقول في سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩﴾ [النحل: ٤٩]. ويقول في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

---

(١) انظر:

- Davies, *Knowing One Another,* op. cit., p. 92.

إذ تفصّل ديفيز هذا الموضوع في دراستها الموسومة بـ(التعارف بين الأنا والآخر) حول المعنىٰ والمضامين في علم أصل الإنسان الإسلامي، مستعينة بالخطاب القرآني المتعلق بالخليقة في صياغة إطار مفاهيمي لبحثها.

ويستحضر المسلمون في وقوفهم أمام الله في الصلاة خمس مرات كل يوم، حقيقة كون الله تعالىٰ هو الرحمن الرحيم، وهو أحكم الحاكمين. يقول الله تعالىٰ في سورة هود: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: ٤٥]. ويقول في سورة التين: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]. فالله تعالىٰ هو أقضىٰ القاضين، ولا عدل يسمو علىٰ عدله.

ويحول الإيمان باليوم الآخر، ذلك الحدث الجليل في وعي المؤمن، إلىٰ غيب مشهود، وحقيقة مستقبلية جازمة وشيكة، تكيف كل شيء في حاضره. وبالمثل، فإنه حينما يتدبر المسلم في شؤون الإنسان في هذه الحياة الدنيا، فإنه يستحضر عظمة من بيده مقاليد كل شيء في الوجود، مالك الملك والملكوت، الذي لا معقب علىٰ مشيئته. ولهذا التصور للإله أهميته بوجه خاص، حين تقوم العواقب الأخلاقية لرسالة الإنسان بوصفه خليفة في الأرض، وبوجه أخص بالنسبة لانعكاس ذلك علىٰ الرؤية الإسلامية للإنسان.

ويتعين التدقيق في هذا التشريف في تخويل الله تعالىٰ تلك المهمة للإنسان، فهي علامة تشريف وتفضيل، يقول الله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

وإن كانت اللبنة الأساسية لهذا التفضيل متمثلة في كل فرد من أمة كونية هي البشرية، فإنه لا يتحقق علىٰ الوجه الصحيح إلا بممارسة مشتركة للخلافة، فهي دعوة كل رجل وكل امرأة مؤهل لإمكانية التكريم بها، ولكن تدبير شأنها علىٰ نحو كامل، يتطلب التعاون بين البشر بوصفهم جماعات.

ولا غرابة في ظل هذا المعنىٰ، أن تكون السياسة بوصفها مجال الشأن العام المنظَّم والمنظِّم، هي الموضع الطبيعي المناسب المفترض لمهمة الخلافة. ويسوغ هذا

التأويل الذي قد يكون غير تقليدي بسياقين معينين في القرآن الكريم، وردت فيهما مفردة (الخلافة) غير مقرونة بمشتقاتها.

فقد وردت في السياق الأول في قصة خلق آدم، وشرف آدم بحمل أمانتها. أما في الموضع الثاني، فقد وردت في سياق الملك؛ إذ أمر الله داود أن يحكم شعبه بالعدل على هدي الوحي المنزل. يقول الله تعالى في سورة ص: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

وبذا نصل إلى بعض الملاحظات الختامية، حول ما يمثل مفهوماً مفتاحياً جلياً في الرؤية الإسلامية للإنسان، فثمة ما يوحي بأن مفهوم الخلافة المذكور في القرآن مناظر لمفهوم الدومينيون التوراتي.(١)

وفي حين يؤكد ذلك، بلا شك، على وجه للشبه بين كل الكتب المنزلة في ملة التوحيد الإبراهيمية، فإنه من المضلل الجمع بين المفهومين، فكل منهما يقود إلى توجه معارض للآخر على طول الخط في رؤيته للعالم؛ فالدومينيون يتضمن معنى السيطرة والحكم والسيادة والقوة، وهو يتضمن، علاوة على ذلك، معنى الاستقلال الذاتي. ومن الجهة الأخرى، فإنه بينما يصدق القول في الرؤية الإسلامية، بأن الله تعالى منح الإنسان القوة والسيطرة والحكم، فإن ذلك المنح مشروط وعلاقي. فلا ادعاء بحيازة القوة، ناهيك عن توليدها، تماماً كما أنه لا محل للقول بامتلاك موارد الأرض، وامتلاك حرية التصرف المطلق في أي من القوة أو الثروة، على غرار ما تسمح به السيادة المتأصلة في مفهوم الدومينيون.

(1) Cragg, Kenneth. *The Privilege of Man of Man: A theme in Judaism ,Islam and Christianity*, The Jorden Lecture,1967.

(كينث كراج: امتياز الإنسان: موضوع في اليهودية والإسلام والمسيحية).

* الدومينيون: الملائكة المكلفة بتلقي الأوامر الإلهية (المترجم).

فالأمر في الخلافة هو مسألة حق انتفاع، بمعنى الحق في استخدام القوة والثروة بشروط معينة. وعلى النقيض من الاستقلال الذاتي، تستلزم الخلافة تفويض السلطة من سيد وصاحب سيادة إلى (تابع له).[1]

وإذا خلّصنا المفهوم الأخير من مضامينه الإقطاعية في تاريخ أوروبا في القرون الوسطى، فإنه تتبقى الأفكار الرئيسة فيه، متمثلة في شخص مخوّل له الاستعمال المشروط للأرض الطيبة لأمد محدد، مقابل تعهده بالولاء والإخلاص لسيده. ويتضمن تفويض السلطة، الائتمان المقرون بالمسؤولية، وتستشف من ذلك فكرة المحاسبة والقضاء.

والنقطة الجوهرية في تفكيك هذا النص، أن تلك الأفكار المفتاحية الخاصة بالتفويض، والسلطة، والمسؤولية، والولاء، والعهد، والأمانة، والتمثيل، والاصطفاء، والألفة، متضمنة كلها في مفهوم الخلافة أو بمعنى أدق في مفهوم (الخليفة الرباني في الأرض)،[2] ولا يقلل هذا المفهوم من شأن الاستقلال الذاتي للإنسان فحسب، بل يستحضر الوجود الكلي المطلق لله تعالى أيضاً. ومع تجلية التعبير عن المفاهيم التي تربط بين الإنسان وربه، بفكرة الميثاق والعهد، يتأسس التوازن بين الحكم الذاتي

(١) من الترجمات الأكثر تقليدية لمفهوم (النيابة): الوكالة، ونائب الوصي، والممثل، وكل من هذه المفاهيم يركز على جانب مختلف من مفهوم (الحكم)، وتولي سلطة مفوضة من طرف آخر. وقد فضلنا هنا استخدام مفهوم (التابع) للتأكيد على بعدي: الولاء والحاكمية المطلقة، وإن كان مفهوم (الإنابة) يعبّر على نحو أكثر دقة عن الأمر الإلهي بتكليف الإنسان بالمهمة التي كلّفه بها. واختار محمد أسد ترجمة مفهوم (الخلافة في الأرض) الوارد في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠] بـ(من سيرث الأرض)، تمشياً مع مدلولات ورود المفهوم ومشتقاته الأخرى (ومنها خلائف). إلا أن لدينا على ضوء تفسيرنا لمفهوم (الأمانة) والحضور الدائم لمفهوم الميثاق أو العهد، بعض التحفظات على تسوية مفهوم الخلافة بوراثة الأرض. ويتعزز هذا التحفظ، بفهمنا للحقل الدلالي لمفاهيم مرتبطة بمفهوم الخلافة، مثل: العبودية والألوهية والربوبية.

(٢) من الملاحظ أيضاً أنه على النقيض من مفهوم الدومينيون، فإن الخلافة تمارس (في حدود)، وربما (على)، بمعنى التصرف في حدود نطاق أو وضع معين، وهي لا تمارس (فوق) و(على) أو (ضد) أي شخص أو أي شيء. وهذا الفارق الدقيق غائب عادة في تراجم معاني القرآن.

للإنسان والتبعية بشكل حاسم، ولا غرابة في أن تنبثق من هذه العلاقة بين النسبي والمطلق، أخلاقية جامعة للبينة والمسؤولية.

وترد هنا ملاحظتان أخريان لإزالة أي لبس ناتج عن التداعيات الذهنية واستغلاق اللغة؛ فإذا كان مفهوم (التابعية) يستدعي معنى العبودية الممزوجة بالخنوع، فإن الخلافة على ضوء ارتباطها بمفاهيم العبودية والربوبية والألوهية، تستدعي معنى الاصطفاء،[1] والتكريم. وكما أشرنا من قبل فإن الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٤-٥]، والذي أقسم بالقلم: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١]، هو المتفضل الجواد بكل المعرفة والحكمة، الذي علّم آدم الأسماء كلها، ومنحه بذلك فضلاً على بقية المخلوقات، وتم منح تلك المعرفة المهيئة للإنسان لمهمته التي خُلق لها، والمكرمة له عبر العقل، وملكة التفكير المفاهيمي والمجرد، في لحظة تحول جوهرية متممة للخليقة؛ إذ حمّل الله آدم بالأمانة، واختاره للخلافة.

والفكرة المتواترة في الخطاب الثلاثي الطبقات عن الإنسان التي أشرنا إليه آنفاً (وهي الخطاب المتعلق بالخليقة، والخاص بالتكريم والتكليف، والخاص

---

(١) هذا التفضيل عبر الاصطفاء، يحدث بالنسبة للملائكة والأنبياء والمرسلين، وكذا بالنسبة لأي شخص يختاره الله من عباده. يقول الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]. ويقول في سورة الحج: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾ [الحج: ٧٥]. ويقول في سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ [فاطر: ٣٢]. ويقول في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

وتفضيل الإنسان عبر الدين؛ أي عبر هدايته بوحي منزل إلى الصراط المستقيم، واحد من مظاهر رحمة الله التي وسعت كل شيء، وعلامة بارزة على ما حبا الله الإنسان به من امتيازات. يقول الله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ۝١٣٣﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

بالهدي المنزّل)، هي أن الله تعالىٰ الذي خلق، هو الذي منح المعرفة التي صار بها القيام بأمره ممكناً، والتي جعلت التصرف في خيرات الخليقة في متناول البشر. وهذا هو الاصطفاء والتكريم الذي سلمت به الملائكة بإجلال، وهو الذي سلَّم به إبليس علىٰ مضض، وجادل فيه من باب الحسد. يقول الله تعالىٰ في سورة الإسراء: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

هذه بعض الفروق الدقيقة والمعاني الملازمة لمفهوم الخلافة، التي هي محط ميلاد الإنسان ووظيفته التي اصطفاه الله للقيام بها. وهذه المعاني الدقيقة تجعل الخلافة مفهوماً قرآنياً فريداً قائماً بذاته، لا يمكن التعبير عنه بمفهوم آخر، يحمل في طياته كل مضامينه الأخلاقية، كما أنها تشير إلىٰ المكانة الفريدة التي يتبوأها الإنسان في الرؤية الإسلامية.

ب- إعادة رسم معالم الطريق

بوسعنا هنا أن نلخص الطرح السابق، وأن نضيف إليه ما يغنيه، فنهاية مسيرة بحث هي عادة نقطة لتوليد مسيرات بحث أخرىٰ علىٰ أثرها. ويمكننا القول بأن الكائن الاجتماعي الذي قابلناه في هذه الدراسة: مخلوق كثير النسيان. ونلاحظ في هذا السياق الذي يتموضع الإنسان فيه، في خلافته الرسالية، أن لقابليته للنسيان عواقب بالنسبة لنفسه، وللآخرين.

وثمة بعد آخر يتمثل في الظلم والجهالة المتأصلة فيه، التي تبدأ بالنفس، ويمتد أثرها إلىٰ المجتمع والتاريخ. فالإنسان قابل للانحطاط إلىٰ أسفل سافلين، وللارتقاء إلىٰ أعلىٰ عليين، وهو في صعوده وهبوطه، يهبط بغيره أو يرتفع بهم معه.[1]

---

(١) لا نقابل الإنسان بمفرده إلا في موضعين: في بداية الزمان، وفي نهايته يوم القيامة. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٤]. وفيما عدا هذين الموقفين فإن الإنسان كائن في زمن، مبتلىٰ في عزيمته، وهو يعمل وسط آدميين آخرين.

ويفسر ذلك السبب في توقف الإصلاح الاجتماعي والسياسي في التاريخ الإسلامي، على الإصلاح الأخلاقي أو الجواني الذي يبدأ داخل النفس، ويمتد منها لتشمل ثماره المجتمع. فبالتقرب إلى الله تعالى، يصحو الضمير من ثباته، ويتجدد القلب، وتدب الحياة في الإحساس بالواجب تجاه صالح الأمة وسلامة العالم الذي نعيش فيه، ويصبح التعاون على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وسيلة لتعزيز الوسط الذي يطهر الأفراد أنفسهم.

والمفهوم الإسلامي المعبّر عن ذلك هو (إعلاء كلمة الله) بالمعرفة والإقرار بأن العظمة والكبرياء لله، وأن الشرف والمجد لمن يسعون على صراط الله المستقيم، وعلى يقين من أن الغلبة في نهاية المطاف هي للحق والعدل. يقول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١].

وكل إنسان -رجلاً كان أم امرأة- قادر على التوبة والإنابة إلى الله، تماماً كما حدث لأيوب عليه السلام، وملكة سبأ، وزوجة عزيز مصر التي افتتنت بجمال يوسف. وهم بالعودة إلى الله، يهدون شعوبهم معهم أو يدخلون إصلاحات تفيد غيرهم، تماماً كما تفيدهم هم أنفسهم.

والإصلاح متطلب أساسي للتوبة، كما أن الأمل هو دليل صحة الإيمان. فأخلاقية التكامل تجعل من الممكن الحديث، في آن واحد، عن النفس الفردية وعن تكاملها، مع استخلاص الروابط التي تربطها بالمجتمع باستمرارية متواصلة. وإذا كان ضمن تلك الأخلاقية حقيقة قابلية الإنسان للجهالة والوقوع في الخطأ، بوصفها علامة على ضعفه الذي يجعله قابلاً للوقوع في براثن غواية الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء، فإن من علامات عظمة الإنسان ونبله، في المقابل، التوبة والرجوع عن الخطأ، والإصلاح.

فالإنسان الأوّاب هو الذي يعود دائماً إلى ربه، والتوبة هي ندم المخطئ بإخلاص على الخطيئة. وفي كلتا الحالتين، فإن باب العفو والمغفرة والرحمة مفتوح، ورحمة الله

تعالىٰ التي تصون نفس الفرد، التي تستشعرها في سرّها مع ربها، هي مما وعد الله به النفس الأوابة، والموهوبة للأمة التي ترقىٰ لمصاف القيام بمسؤولياتها وتكليفها المشترك. وهذا أيضاً مستخلص من مضمون الهدي الإلهي المنزل، ومن شكل خطابه الموجه للرجال والنساء بصفتهم الجمعية، تماماً كما هو موجّه للنفس الواحدة.

وخلاصة القول: إن الإنسان قادر علىٰ فعل الخير العميم؛ ومن أجل ذلك خلقه الله في الأساس، وهو -في الوقت نفسه- قادر علىٰ فعل الشر المستطير، عبر الغطرسة، والميل الشديد للجدال؛ فالتكبُّر يعميه عن الحق والصواب والعدل، والميل للجدال يجره إلىٰ تسويغ عناده. ولمّا كانت تلك الميول الفطرية تقع في قلب غافل، فإن القرآن يحث الإنسان علىٰ تنقية دخيلة نفسه، ويبين له طريق التزكية والتزكّي. يقول الله تعالىٰ في سورة الشمس: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ [الشمس: ٩-١١].(١)

وفي الوقت نفسه يهيب القرآن بالإنسان أن ينقي ظاهره الخارجي أو مقتنياته المادية. يقول الله تعالىٰ في سورة الليل: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ [الليل: ١٢-٢١]. ويقول بمعنىٰ مُناظر في سورة التوبة: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة: ١٠٣].(٢)

---

(١) يطيب لنا في نهاية هذه الدراسة إيراد نص سورة الشمس بآياتها الخمس عشرة: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾ [الشمس: ١-١٥] تذكرةً ومثالاً علىٰ ما سقناه من ملاحظات حول خصائص الخطاب القرآني المتعلق بخلق الإنسان، من زاوية المنظور الكلي المتولّد منه، وإيحاءاته التكاملية، وما به من إرشادات عملية.

(٢) من الأمور ذات الدلالة في هذا الصدد أن الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام. وأصل مفردة=

وخلاصة القول: إن الإنسان الأخلاقي، هو عماد الأمة الأخلاقية. ويعظ الله تعالىٰ في خطاب قرآني موجّه للمؤمنين الفعليين والمحتملين، في أمة يافعة ونامية، قائلاً: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢]. ومن القبيل ذاته يأتي قول الله تعالىٰ في سورة البقرة علىٰ لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقول الله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقوله سبحانه وتعالىٰ في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: ٢].

=(الزكاة) مستقىٰ من الجذر اللغوي ذاته للنماء والتطهير. والأمر الإلهي بفريضة الزكاة، (إلىٰ جانب الحث علىٰ الصدقة التطوعية) يأتي في القرآن دائماً في سياق أمر جامع بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وفي ذلك أقوىٰ دليل يذكّرنا بتكاملية الإنسان: الجسد والروح، والمادي والأخلاقي، والأرضية الصلبة للتدريب عليها. ومن الشواهد القرآنية علىٰ ذلك، قول الله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: ٤٣]. وقوله في ذات السورة: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة: ٨٣]. وقوله سبحانه في ذات السورة: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وقوله سبحانه وتعالىٰ في سورة النساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢]. وفي سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [المائدة: ٥٥]. وفي سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥]. وفي سورة الحج: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: ٤١].

وبالرغم من حقيقة أن الأمر بهذا النمو في طهارة، موجّه للرجال والنساء، بوصفهم أفراداً وبصفتهم الجمعية، فإن قيمة الأمة المسلمة لا تُقدّر بعدد أفرادها. فلها، على هذا النحو، شروطها الموضوعية الخاصة بها، المكفولة بشرعتها الأخلاقية القانونية، التي تضمن لها ولأفرادها تلك الأخلاقية المرتبطة بوسطيتها، وبذا تحتفظ بتناغمها. فلا شر فيها يتعلق بالإنسان بنفسه، ولا بفعله، ولا بوضعه، بل يقع العبء على النية المصاحبة للعمل والكسب. وهذه رؤية للإنسان مقررة للشؤون الدنيوية وللحياة.

وإضافة إلى ما سبق، فإن الإنسان مخلوق له احتياجات، وله تطلعات، وتشمل تلك الاحتياجات ما هو أخلاقي، وما هو فكري، وما هو روحي، وما هو جسدي ومادي. وتتطلب هذه الاحتياجات إشباعها، لتتحقق تكاملية الإنسان. وتمثل الأمة التي تلبي هذه الاحتياجات بحد الكفاية، أمة أخلاقية أساسية متكاملة، ولا تضع الرؤية الإسلامية للإنسان هذه الاحتياجات في حسابها، على أساس البحث التجريبي عنها فحسب، بل في ضوء أوامر الوحي المنزل المتعلق بها؛ فالوحي لا يكتفي -في تناوله تلك الاحتياجات- بتقرير الحقيقة التجريبية فحسب، بل يؤطرها على نحو بنّاء. وتأسيساً على ذلك، تلبى احتياجات الإنسان الأساسية بشرعة أخلاقية شاملة، تكفل سلامة الجنس البشري واستمراريته، وهذه هي الشريعة، التي هي بجذريتها وبساطتها ومرونتها، ومصفوفتها المفاهيمية والآمرة المتطورة، تكفل التقارب، إن لم يكن التطابق، بين الإنسان الأخلاقي والإنسان القانوني، فالقيم التي يتم تمثلها والتطبع الذاتي بها تتعزز في حدودها بالوازع القانوني الخارجي.

وللشريعة معنى رمزي ومحدد، فهي في الأساس تشير بمعناها الرمزي إلى الطريق المؤدي إلى مصدر الماء، والماء هو مصدر الحياة. وهي بالتعبير المحدد، تعني إضفاء الصبغة الرسمية على تلك الشرعة الأخلاقية التي تصون مرتكزات الكينونة الاجتماعية للإنسان، وتضمن له متطلبات القيام بمهمته على الأرض،

المتمثلة في الخلافة، كي تتجه حياة البشر على الأرض إلى سبيل الله والخير. ولا يكتمل بيان الرؤية الإسلامية للإنسان دون الوعي بالشريعة وبمداها وغايتها. وفي الوقت ذاته، فإن الشريعة تقدم وصفة آمرة لنظام مؤقت تتجلى في ظله مهمة الإنسان على الأرض.

وكما رأينا من قبل، فإن من طبيعة هذا النظام التنوع. ومع ذلك، فإن البشر أنفسهم يظلون وسط تنوعاتهم الرسمية كلها بشراً يتشاطرون القواسم المشتركة الأساسية القائمة بينهم. وحول تلك القواسم المشتركة تتحدد التصنيفات الأساسية للجنس البشري على الدوام، وفق نوعية معايير التصنيف الأخلاقي الذي يوحّدهم عبر الزمان والمكان، ويجعل للخطاب القرآني الموجّه للإنسان والدائر حوله علاقيةً دائمة في كل زمان ومكان، فما هي تلك الفئات؟ وهل الفارق أو عامل التمييز الأساسي مكتسب أم موروث؟.

والتصنيفات التي يعوّل عليها -في منظور الإسلام- هي التي يمكن اكتسابها، فالله عادل، وهو سبحانه وتعالى منح للرجال والنساء فرصة اختيار الصنف الذي يريدون الانتماء إليه، بأفعالهم وبنواياهم. والتنوعات الموروثة من قبيل الجنس أو النوع ليست محلاً للخطاب الأخلاقي. والتصنيفات التي يعوّل عليها -بالأحرى- مذكورة في مستهل آيات القرآن الكريم،[1] بوصفه ميراث النبوة الكامل والتام،

(١) بالترتيب التوقيفي للقرآن الكريم، كما هو وارد بالمصحف برسمه العثماني المتواتر من الصدر الأول للإسلام. وكما هو معروف، فإن آيات وسور القرآن الكريم تنزلت على النبي ﷺ عبر فترة طويلة بلغت زهاء ٢٢ سنة. وبهذا المعنى، فإن هناك تسلسلاً زمنياً للوحي وفق النمو التاريخي للدعوة وتطورها. ومن جهة أخرى، هناك كما نعلم، ترتيب آخر للوحي، لقنه جبريل للنبي ﷺ. ومعنى ذلك أنه كما أن القرآن الكريم تنزل آية آية عبر زمن معين، فإنه اتخذ ترتيباً متجاوزاً لسابقه الزمني. ومع إتمام الوحي المشار إليه في قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]، وفي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقبيل وفاة النبي ﷺ،=

الذي ورثته البشرية الراشدة والسائرة على طريق الرشاد. فعقب الفاتحة، التي هي فاتحة كل الفواتح، ودعوة كل روح فردية وجماعية، يفتتح الترتيل المجيد في سورة البقرة، بخطاب عام متعلق ببني الإنسان أجمعين، فهو يتحدث عن المؤمنين في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢-٥]. ويتحدث عن الكفار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾ [البقرة: ٦-٧].

ويتحدث عن المنافقين، مرضى القلوب، الذين يسرّون غير ما يعلنون، ويزعمون فعل الخير وهم يعيثون في الأرض فساداً ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ

=قرئ القرآن كله بترتيبه الذي هو عليه الآن، والذي صار لا يقرأ بسواه. وبهذا المعنى، فإن هناك تسلسلاً من المعالجات الفكرية المهمة لهذه الموضوع، انظر كتاب محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، والمدخل إلى القرآن. وللاطلاع على خلاصة موجزة ودقيقة ومفيدة لجوهر هذا الموضوع، راجع:

- M. Bucile,*the Bible,the Quran,and Science*, trans. ,Indianapolis: ATP edition,1979, pp. 126-131.

(م. بوسيل، الإنجيل والقرآن والعلم).

ٱلْمَوْتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [البقرة: ٩-٢٠]. والخطاب المتعلق بفئة المنافقين ليس موجّهاً إليهم بقدر ما هو بيان احتجاجي على حالهم، حيثما كان الموضوع هو الإنسان التاريخي، وكشف البعد الدنيوي الزائل.

وهذه هي الطبقات العامة لبني الإنسان، أفراداً وجماعات. وتقع كل التصنيفات المؤقتة الأخرى في نطاقها، وهي تتجاوز في سريانها أي تاريخ أو جماعة بعينها. وفي الوقت نفسه، فإن أيّة جماعة تاريخية أو فرد معين، يمكن أن يدرك أوجه التشابه بينه وبين واحدة منها.

وفي حين تتحدد كل تلك الفئات بالأساس من نوعية استجابة الإنسان للهدي الرباني المنزل، في طريق الخلاص، فإن الآثار المحددة لتلك الاستجابة، وتجسيدها في مواقف معينة، يجعلها جزءاً لا يتجزأ من التاريخ العام، منظوراً إليه من تاريخ العالم، وهي بذلك تؤكد على التصور الوحدوي للعالم في المنظور التوحيدي.

وبغضّ الطرف عن فنّيات هذا الموضوع، فإن أهمية ملاحظتنا حول التصنيفات الجماعية التي يمكن استنباطها من رؤية إسلامية للإنسان، تبين ببساطة أن للإنسان وجوداً أساسياً بوصفه (مخلوقاً عابداً)، ووجوداً بوصفه (إنساناً اجتماعياً) مسؤولاً -عبر الزمن الدنيوي وفيما وراءه- عن الوفاء بالميثاق، وحمل أمانة الخلافة. وهو بلا ريب، دور تاريخي بقدر ما هو وضعية وجودية، والنموذج المعرفي الأساسي للعبودية والألوهية والربوبية، هو الذي ينبغي أن يتصور التاريخ ويصنفه ويتم تجاوزه في ضوئه الكامل، فليس بالإمكان إدراك المعنى الكامل للتاريخ بمعزل عن هذه الفئات العامة والمحملة بقيم أخلاقية.

فلنعد إلىٰ عوائق اللغة وأوجه غموضها، التي ألمحنا إليها علىٰ مدىٰ معالجتنا لموضوع هذه الدراسة، والنقطة التي أوضحناها من قبل هي أننا لا نستطيع الحديث عن الرجل دون إدراج المرأة فيه أيضاً، والعلاقة الأساسية بينهما، التي هي من مصدر الخليقة، والخيط الدائم النابع منه. وثمة بُعد وأهمية مضافة لرؤية لهذه العلاقة القائمة علىٰ الخطاب القرآني، والتي يمكن تعزيزها بدرجة أكبر وبمدلول عملي بالسُّنة النبوية، وبالنبي بوصفه الأسوة والقدوة. ونرىٰ ضمن هذه العلاقة، وفيما وراءها، أن ثمة وضعية خاصة محفوظة للمرأة. وفي هذا المقام، يأتي التأكيد القرآني المضاعف علىٰ تلك الوضعية، بوصفه تصحيحاً لضعف إنساني عام للتحريف والخلط، فقد عرف التاريخ عادة إمكانية تحوّل الأطراف الأضعف في المجتمع إلىٰ ضحايا.

فالمرأة مكرّمة مع الرجل بوصفها إنسانة، وهما معاً زوج مخلوق من نفس واحدة، ثم إن المرأة تتلقىٰ تأكيداً إضافياً لمكانتها، في قابليتها الأخلاقية، لضمان شرفها في اختلافها. وبهذه الإضاءة المعرفية ذاتها يتبين أن عملية الزوجية في الخليقة تتعدىٰ مجرد كونها مسألة بيولوجية فحسب، إلىٰ مصاف كونها عملية كونية ذات مغزىٰ روحي مهم.

وأخيراً، فإنه فيما وراء التزاوج والتكاثر والتعدُّد، توجد -علىٰ الدوام-، أهمية النفس الفردية، وما إذا كانت قد اختارت السير علىٰ صراط الله المستقيم والتقوىٰ المؤدية إلىٰ الإيمان والأمن والاطمئنان، أو اختارت سبيلاً آخر. وخلاصة القول: إن المرأة جزء لا يتجزأ من الخطاب الوجودي والأخلاقي، في الرؤية الإسلامية للإنسان.

ولنختم بملاحظة أكثر عمومية، فقد رأينا كيف أن الخطاب الوجودي والأخلاقي في القرآن مترابطان علىٰ نحو لا انفصام له، وهما يلتقيان حول رؤية ذات معنىٰ، ومتناغمة للإنسان بوصفه كائناً أخلاقياً في نفسه، وفي المجتمع؛

ففي الإنسان يتناغم الضمير والوعي لضمان الحرية مع المسؤولية، والعقل مع الوضوح. وأثبتنا بمناقشة المضامين الأخلاقية للخطاب المتعلق بالخليقة، أصالة العنصر الأخلاقي في الرؤية الإسلامية للإنسان؛ فالإنسان هو بالقطع كائن أخلاقي، أولاً، على ضوء خلقه والعهد الأصلي بينه وبين خالقه، وثانياً، بسبب حرمة النظام الأخلاقي ذاته بوصفه تعبيراً عن الإرادة الإلهية، بالنسبة للخليقة بوجه عام، وللإنسان بوجه خاص، بوصفه ذروتها.

وترتيباً على ذلك، فإن مصدر الحقوق والواجبات هو الله تعالى، ويتعين رؤية واجبات البشر تجاه بعضهم بعضاً، في إطار قيمي لواجبات الإنسان نحو ربه، والتي هي مجال تعزى حدود حرية الإنسان فيه إلى الله تعالى. وفي هذا الإطار، فإن حقوق الله وحدوده، تُمثِّل خط الدفاع عن حقوق الإنسان، وعن الحرية والكرامة الإنسانية، كما أنها تحميها من التجاوزات المحتملة من البشر ضد أنفسهم.

ويستدعي ذلك مفهوماً قرآنياً آخر هو: ظلم النفس. ويرجع الفضل في الحرية والكرامة الكفيلة بعدم ظلم النفس، إلى الحدود التي بينها الله تعالى؛ خالق الإنسان، والمشرِّع الأسمى، في مواجهة الانتهاكات المحتملة لها. وهكذا يتأسس هذا النموذج القانوني العقلاني الأخلاقي، على مصفوفة الألوهية والربوبية والعبودية.

ولا يعدو ما طرحناه في هذه الدراسة، أن يكون خلاصة موجزة تُلقي الضوء على علاقية الرؤية الإسلامية للإنسان بالنسبة للعصر الحديث، وما طرحناه حفرٌ معرفيٌّ يسير على السطح، فرؤية الإنسان هي في الحقيقة، رؤية للحياة والمجتمع والثقافة والدين والعالم. وخصصنا جزءاً من هذه اللمحة الخاطفة، ضمن بؤرة بحثنا الانتقائية، التي ركزت على عقلانية الإنسان، ونيابته الأخلاقية، ومسؤوليته، لاستكشافها بأسلوب إسلامي خالص. وكثير من النقاط التي عالجناها قابلة

لمزيد من البحث والتطوير. ونحن في اتخاذنا القرآن مصدراً أساسياً نقتبس منه ونستلهمه نسير على درب طرَقَه قبلنا آخرون، ممن سبقونا في هذا المسعى الجليل والمشرِّف. ونحن نشير إلى طريق لا يزال كنزاً لا ينضب معينه، يمكن أن ينسج منه الكثير من الرسائل التنويرية والتحفيزية حول الرؤية الإسلامية للإنسان.

الخاتمة

وحده القرآن هو الذي يمكن من معينه الخروج برؤية شاملة ومتوازنة للإنسان المتكامل؛ إذ نعرف بنيته من أبعادها البدنية والنفسية والروحية، ومنه وحده يمكننا معرفة شيء عن فكرة دورات الحياة التي قابلناها فيما قبل الحياة الدنيا وفيما بعدها، في سياق يتضمن الدنيا، ويتجاوزها إلىٰ الآخرة. وتُشكّل العلاقة بين تلك الدورات وبعضها بعضاً، فهمنا للشخصية الإنسانية، وللحياة الإنسانية، وتمدّنا بمعنىٰ إقرار الإنسان بفضل ربه عليه، وتعرّفنا بمكانة الدين في نظام الكون.

ففيما وراء البعد الغيبي والإحيائي للخليقة، فإن بُعدها المتعلق بأصل الكون، والخاص بالإيمان بالحياة الآخرة، هو واحد من أبعاد معينة لا يمكن فهمها في هذا المخطط المعرفي علىٰ وجهها الصحيح، إلا في سياق بيان مفاهيم توحيدية مفتاحية تتعلق بالفطرة، والأمانة، والخلافة، والدين. وتلك مهمة تصير علىٰ نحو مطّرد موضوعاً لفرع معرفي جديد بازغ، ولخطاب اجتماعي ثقافي.

ويقترب الطرح السابق الذي اقتصر بحكم الضرورة علىٰ موضوعات مختارة، من أن يكون تقويماً لما قد يمثل بالأساس (حركة إنسانية إسلامية)، وكيفية مقارنتها مع حركات أخرىٰ منبثقة من نموذج آخر، تدّعي أنها تحافظ علىٰ كرامة الإنسان وتكامله.

والخلاصة التي انتهينا إليها، أن الحركة الإنسانية العلمانية، التي هي النموذج المعرفي المهيمن، عبر فلسفاتها المختلفة عن الإنسان، وفلسفتها التي هي من صنع الإنسان، ليس لديها ما تقدمه علىٰ الإطلاق. فغاية ما أنجزته هو دحض تبعية الإنسان لوثنيات من صنعه، وربما تكون قد نجحت في تحرير العالم من الأوهام

بهذا القدر. ومعظم عطاء مثل تلك الفلسفات يأتي ضمن الشق الأول من الشهادة (لا إله)، وبمجرد أن تحاول تلك الفلسفات الخوض فيما هو وراء ذلك، فإنها تصير -فلسفياً- عديمة المعنىٰ، وتصير -عملياً- دعاوىٰ هدامة ونافية للنفس، وهي تشير إلىٰ مفارقة الاستلاب النهائي للإنسان في وسط الوفرة.

ووحدها الحركة الإنسانية الإسلامية هي القادرة علىٰ العطاء؛ لأنها تستمد دافعيتها من الإيمان بوحدانية الله تعالىٰ، ولكونها تُسلّم بحدود للاستقلال الذاتي للإنسان، وتستدل من الطبيعة، ومن وضعية الإنسان علىٰ فضل الله عليه، فإنها تبرهن علىٰ إنسانية الإنسان بالمعيار الذي يختاره للارتقاء إلىٰ مستوىٰ التكليف المقدّر له.

ولا جديد بالأساس، في هذا التعريف لإنسانية الإنسان، فقد توصّل مفكرون مسلمون في الماضي بطريقتهم الخاصة، للخلاصة ذاتها التي توصّلنا إليها، لكونهم استمدوا رؤيتهم من المصادر نفسها الموثوق بها والثابتة التي نستقي منها رؤيتنا في هذا العصر، وأدركوا في حينها، ما نعيد نحن التسليم به، مع استعادة ارتباطنا بمصادرنا المشتركة. فإنسانية الإنسان، بالنسبة لنا ولهم، غير متوقفة علىٰ الجسد أو الشكل الخارجي، وإنما هي وظيفة الروح، تلك النفخة الربانية، التي منحت الإنسان الحياة في أصل خلقته، والعهد الأصلي بينه وبين خالقه، الذي كفل له مصيره لدىٰ الرجعىٰ الأخيرة إلىٰ ربه.

وفيما وراء ذلك، يغدو التحدي لبني آدم -رجالاً ونساء- في الحياة الدنيا، هو تحقيق التوازن بالسير علىٰ الصراط الدقيق والمستقيم، بين الاستقلال الذاتي والتبعية. والغاية هي حمل الأمانة والوفاء بالعهد؛ إذ يقوم الآدميون -رجالاً ونساء- بوصفهم مخلوقات أخلاقية واعية وصاحبة ضمير، بحمل أمانتهم، في ضوء الهدي الإلهي المنزل، وبسعيهم بالوفاء بما عهد الله تعالىٰ إليهم به، في ضوء

الوحي المنزل، يصيرون جديرين بالخلافة، التي حباهم بها خالقهم، ومن إليه ملاذهم، ومن أمامه سيكون حسابهم الأخير يوم الدين، وبقدر ما يتحقق من تلك المهمة يكون المعنىٰ الكامل للحياة وللإنسانية.

هذا هو فهم المسلم لنفسه، ولدوره في الحياة، ولهذا الفهم مضامينه العملية التي تتخطىٰ تصوراته إلىٰ أفعاله وسلوكه، والتي تشمل تصوره لنفسه، ولعلاقته بالآخرين، وبالعالم الدنيوي الذي يحيا به مؤقتاً. وتتجسّد هذه الرؤية الإسلامية للإنسان في حياة من يسعون للارتقاء إلىٰ مستوىٰ المعيار القرآني، والتوازن المأمور بتلمسّه، كما بينهما الوحي المنزل علىٰ النبي الحبيب ومعه.

وهي بذلك رؤية تشع في جهود وتضحيات مَنْ يسعون للسير علىٰ النهج الذي سار عليه قدوتهم، ومن النادر أن تنحرف هذه الرؤية إلىٰ جيوب الفلاسفة والمنظّرين، وتتخفىٰ في أطروحاتهم. ولكون تلك الرؤية مصوغة في مصادر الإيمان، علىٰ نحو جلي ومتساوق ومتناغم، فإن المسلم الذي تربّىٰ علىٰ هدي مصادرها الأصيلة، لا يجد صعوبة في فهمها. وتختلف خبرته عن خبرة المعاناة الوجودية، التي كانت مصدراً استلهم بعضهم منه قدراً كبيراً من الفصاحة، وتلمّسوا عبره الطريق في الأدبيات الأخرىٰ، فالتحدي الذي يواجه المسلم هو تطبيق فهمه في وضع محدد سلفاً لاختباره فيه. ومرة أخرىٰ، نجد أن التحيُّز لتأكيد الحياة في الإسلام يصب باتجاه (التطبيق العملي الصحيح).

وحيثما يصل تفكير المسلم، فإن مهمته تظل هي القراءة والتوليف بين ما بيّنته تلك المصادر، واكتشاف وإعادة اكتشاف المنظورات التي تُلحّ الحاجة إليها، والتي يمكن أن يشارك غيره فيها، بيقين وبتواضع. ومهمة ذلك الفكر ليست -بالقطع- مهمة خلق واختراع، لا ارتجال ولا تخمين في نطاق اختص الله تعالىٰ نفسه بحكمته، وعلمه المطلقين، وفضله ورحمته اللذين لا حدود لهما، بأن يوجه

الإنسان وينوره فيها؛ ذلك أن من صميم الرؤية الإسلامية للإنسان أن ثمة حدوداً لعبء الأخلاقية الذي تحمّله الإنسان مختاراً؛ تلبيةً لأمر ربه، وأن هذه الحدود تولد في سياق السعي إلىٰ القيام به، وليس في سياق اختراعه. فالله تعالىٰ يقول في سورة البقرة: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]. والدعاء الذي به يدعو المؤمنون هو الوارد في الآية الخاتمة لسورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والحمد لله الذي بحمده تتم الصالحات

المراجع

أولاً: المراجع العربية

أ- مراجع أساسية

- الجرجاني، علي بن محمد. **التعريفات**، تونس: الدار التونسية، ١٩٧١م.
- رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، بيروت: دار المعرفة، ط٢، (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م).
- ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.
- عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٩ - ١٩٤٥م.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٧م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م.
- قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط ٧، (١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م).
- لابوم، جول. **تفصيل آيات القرآن الكريم**، ويليه **المستدرك** وهو فهرس مواد القرآن الذي وضعه إدوار مونتيه لترجمته الفرنسية للكتاب الكريم، نقلهما إلى العربية: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م.

ب- مراجع ثانوية من التراث

- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، بيروت: دار النفائس، ط١، (١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م).
- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، (د.ت.).

- ابن طفيل، محمد بن عبد الملك بن محمد. **حي بن يقظان،** تحرير: نصري نادر، بيروت: دار المشرق، ١٩٦٨م.
- الغزالي، أبو حامد محمّد بن محمّد. **مجموعة رسائل حجة الإسلام أبو حامد الغزالي،** بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.
- فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر. **المطالب العالية من العلم الإلهي،** تحقيق: أحمد حجازي السقا، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م.
- فريد، أحمد (جمع وترتيب). **تربية النفوس وتزكيتها كما يقررها علماء السلف: ابن رجب الحنبلي وابن القيم وأبو حامد الغزالي** ، تحقيق: ماجد بن أبي الليل، بيروت: دار القلم، ط١، ١٩٨٥م.

ت- مراجع ثانوية معاصرة

- البار، محمد علي. **خلق الإنسان بين الطب والقرآن،** جدة: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤م .
- توفيق، محمد عزالدين. **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث،** القاهرة، حلب، بيروت: دار السلام، ١٩٨٦م.
- الجوزو، محمد علي. **مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة،** بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.
- الحبابي، محمد عزيز. **ورقات في الفلسفة الإسلامية،** الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨م.
- الخولي، البهي. **آدم عليه السلام: فلسفة تقويم الإنسان وخلافته،** القاهرة: وهبه، ١٩٧٤م.
- السقا، سيد سلامة. **الإنسان: رؤية إسلامية طبية،** بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٠م.
- عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ). **القرآن وقضايا الإنسان،** بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٨م.
- عبد العزيز، أمير. **الإنسان في الإسلام،** بيروت وعمان: مؤسسة الرسالة ودار الفرقان، ١٩٨٤م.

- عبده ، عيسى، يحيى، أحمد إسماعيل. **حقيقة الإنسان**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨١م.
- ابن عبود، المهدي. "مفهوم الإنسان وطاقته الروحية في الطب"، ورقة غير منشورة مقدمة إلى المؤتمر الطبي الإسلامي بالكويت، ٢٩ مارس- ٤ إبريل، ١٩٨٢م.
- الغزالي، محمد. **الإسلام وحقوق الإنسان**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥م.
- القرضاوي، يوسف. **الإنسان في الإسلام**، أكسفورد: ١٩٨٩م.
- قطب، سيد. **مقومات التصور الإسلامي**، القاهرة: دار الشروق.
- نجاتي، محمد عثمان. **الحديث النبوي وعلم النفس**، بيروت: دار الشروق، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- نجاتي، محمد عثمان. **القرآن وعلم النفس**، بيروت: دار الشروق، ١٩٨٧م.
- النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧م.

ثانياً:المراجع الأجنبية

أ- مراجع أساسية

- Ali, Abdullah Yusuf. *The Holy Qur'ān: text, translation, and commentary*, Brentwood, Md., U.S.A.: Amana Corp., 1989.
- Asad, Muhammad. *The Message of the Qur᾿ān*, Gibraltar: Dār al-Andalus, (distributed by E. J. Brill, London), 1980.
- Kassis, Hanna E.. *A Concordance of the Qur'an*, California: University of California Press, First Edition, 1983.

ب- مراجع ثانوية من التراث

- Abdel Karim, A1 Jili. *Universal Man*, Trans. by Titus Burkhardt, London: Beshara Publications, 1983.
- Al Ghazali, Imam Mohammad Bin Mohammad. *Inner Dimensions of*

Islamic Worship, Translated from the Iḥyā’: Mohtar Holland, Leicester: The Islamic Foundation, 1983.

ت: مراجع ثانوية معاصرة

- Abul-Fadl, M.A.M., Man: Gods Honoured Creation, Paper presented at International Colloquium On Bioethics (Milano:Institute Scientific H San Rafaele,7-10April,1988.
- Abdul Latif, Syed. The Mind al Quran Builds(Lahore: Accurate Printers, n.d.).
- Anthropologie anhand des Beispiels Allah und Muhammad. Impulse der Forschung, Band 22 by Bouman, Johan.
- Ayoub, Mahmoud.The Qur’an and its Interpreters (Albany: State University of New York Press,1986.
- Bewley, A bdalhaqq. The Natural Form of Man in Islam, (London:Ta-Ta, 1986).
- Boisard, Marcel. L'humanisme de l'Islam, Ed. Albin Michel, Paris, 1979.
- Bouman, Johan. Gott und Mensch in Koran:Ein Strukturform religioser
- Bucail1e, Maurice. L'Homme d'ou vient-il? Les reponses de la Science et Des Ecritures Saintes (Paris: Seghers, 1976).
- Bucail1e, Maurice: What is the Origin of Man: The Answers of Science and The Holy Scriptures Eng. Trans. (Paris: Seghers, 1976, 1982) Ch.4.
- Cragg, Kenneth. the Privilege of Man: A Theme in Judaism. Islam and Christianity the Jordan Lectures, (London: The Athlone Press, 1968).
- Eaton, Charles Le Gai. Islam and the Destiny of Man (New York: State University) of New York Press, published in association with The Islamic Texts Society, 1985)
- A1 Faruqi, Ismail. Tawhid: Its Implications for Thought and life (Kuala Lampur: The International Institute for Islamic Thought, 1402 /1982) Ch.6
- Forschung, Band 22 (Oarmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1977).

- Garaudy, Roger. Biographie du XXe. siec1e. Le testament phi1osophiaue du Roger Garaudy. (Paris: Tougui, 1985).
- God and Man in Contemporary Islamic Thought: Proceedings of a Philosophy Symposium at the American University of Beirut held in 1967, edited with introduction by Ma1ik, Charles.
- Haeri, Fad1a11ah. Man in Quran and the Meaning of Furaan Tafsir of surah A1 Baqarah, (Texas: USA, Zahra Publications, 1982)
- Irving, Thomas Bal1antine. Khurshid Ahmad, Muhammad Manazir Ahsan, The Qur›an: Basic Teachings (Leicester: The Islamic Foundation, 1979/1399).
- Izutsu, Toshihiko. God and Man in the Koran: Semantics of the Koranic Weltanschauung (Tokyo: The Keio Institute of Cultural and Linguistic Studies, 1964).
- Khouja, Abdullah. The Relevance of the Qur'an to Human Nature (Washington D.C.: The Islamic Cultural Center, 1986).
- Munir, Mohammad. God. Universe and life: A Spiritual Interpretation of the Universe (Rawalpindi: Mohamed Asim Idris, 1982).
- A1 Mutahhari, Murtaza. The Human Being in the Quran (trans.by Hossein Dastjerdi) (Tehran: Ministry of Islamic Guidance, n.d.).
- Nasr, Seyyed Hossein. ed., Islamic-Spirituality: Foundations World Spirituality, f..J).f An Encyclopedic History of the Religious Quest, vo1.19 (New York: Crossroad, 1989).
- Nasr, Seyyed Hossein. Sufi Essays (London: George Allen and Unwin, 1972) Schocken Books (1977). Ch.2 and 6.
- Niazi, Kausar. Creation of Man (Lahore: Sh.MuhammadAshraf, 1975).
- Oavies, Merryl Wyn. Shaping an Islamic Anthropology (London: Manse", 1988) Ch.4.
- Othman, Ali Issa. The Concept of Man in Islam in the Writings of a1 Ghazali (Cairo: Dar al-Ma'aref, 1960) See esp. Ch.3 and Appendix-
- Al Saqqa, Al Sayed Salama. Al-insan: ru'ya islamiyya tibbiyya (Beirut,

Lebanon: mu’assasit al risala, 1990).

- Shari’ati, Ali. Man and Islam Trans. From the Persian by Fatollah Mar- 0.”, jani, (Houston, Texas: Filinc, 1974).
- Sheikh Idris, Ja'far. "Human Nature in the Quran" (Paper presented at lIlT & published in AJISS).
- Al Talbi, Mohammed. "La Vocation de L’Homme" in M.Bucallle and M. Al Talbi, Reflexions sur le Coran (Paris: Seghers, 1989).
- Takeshita, Masataka. Ibn Arabi’s theory of the oerfect man and its olace in the history of Islamic Thou~ht Studia Cultura Islamica 32, (Tokyo: Institute for the Study of Languages and Cultures of Asia and Africa, 1987).
- Umaruddin, Muhammad. The Ethical Philosoohy of al-Ghazali (1970).

ثالثاً: أدبيات مقارنة عامة: قراءات مقترحة

- Albert, Gelin. L'Homme selon la Bible trans. in English by David Murphy. (New York: Society of St.Paul, Alba House, 1968).
- Azzam, Salem. Islamic Council of Europe, Islam and Contemporary Society edit. (London and New York: Longman, 1982).
- Bovin, Rene. Erich Fromm and the Conceot of Man: Marxism, Freudianism and Spiritualism Thesis presented at University of Fribourg, Switzerland (Ottawa: Canada, Campus of Jonquiere Printing, 1973).
- Buber, Martin. The I and Thou Second Edition. (New York: Charles Scribners, 1958).
- Cassirer, Ernst. An Essay on Man: An Introduction to a Philosoohy of Human Culture (New Haven and London: Yale University Press,1944 (1963".
- Clark, Kenneth. The Concept of Universal Man (1972).
- Eaton, Charles Le Gai. King of the Castle: Choice and Responsibility in the Modern World (London:Bodley Head, 1977) esp. Ch.5.
- Al Faruqi, Ismail Ragi. Christian Ethics: A Historical and Systematic Analysis of its Dominant Ideas (Montreal: McGill University Press, 1967) esp. Part 2.

- Frieling, Rudolph. Christianity and Islam: A Battle for the true Image of Man trans. from the German. (1978).
- Freud, Sigmund. Civilization and.its Discontents Newly trans. from the German and edited by James Strachey. (New York: W.W. Norton & Co., 1961).
- Fromm, Erich. Man for Himself (New York: Reinhardt, 1947).
- Fromm, Erich. and Ramon Xirau, ed., The Nature of Man: Readin~s Problems of Philosophy Series, (New York, London: Macmillan, Collier, 1968).
- Herberg, Will. Judaism and Modern Man: An Interpretation of Jewish Religion (New York: Harper Torch Books, Harper and Row, 1951).
- Hughes, E.R.. ed. The Individual in East and West (London: Humphrey Milford, Oxford University Press, 1937).
- Kierkegaard, Soren. The Sickness unto Death: A Christian Psychological Exposition for Upbuilding and Awakening Ed.and trans. by Howard V.Hong and Edna H. Hong, (Princeton: New Jersey, Princeton University Press, 1980).
- Lasch, Christopher. The Culture of Narcissism: American Life in an Age of Diminishing Expectations (New York: W.W.Norton & Co., 1978).
- Marcel, Legaut. l'Homme a la Recherche de son Humanite: "Et homo factus est" Collection Intelligence de la Foi, (Paris: Aubier-Montaigne, 1971).
- Marcel, Gabriel. Problematic Man Trans. by Brian Thompson (New York: Herder and Herder, 1967).
- Maritain, J.. True Humanism, N.Y.Suibnvi,1956.
- Niebuhr, Reinhold. Beyond Tragedy: Essays on the Christian Interpretation of History (New York: Charles Scribner's Sons, 1937).
- N., Berdyaev. The Fate of Man in the Modern World (Ann Arbor Paperbacks, the University of Michigan Press, 1963).

- Niebuhr, Reinhold. Moral Man and Immoral Society (New York: Charles Scribner's Sons, 1932, 1960).
- Radhakrishnan, S. and Raju, P.T. The Concept of Man: A Study in Comparative Philosophy (1966).
- Appasamy, S.P. The Conceot of Man in Western Literature (Madras: The Christian Literature Society, 1981).
- Solomon, The Self in Modern Western Thought (Oxford: Oxford University Press, 1989).
- Tu Weiming, Humanity and Self-Cultivation: Essays in Confucian Thought (California: Berkeley, Asian Humanities, 1979).



هذا الكتاب

هو قراءةٌ للرؤية الإسلامية للإنسان، بصورة معاصرة تتسق مع رؤية المسلم المعاصر وتفاعله مع قضايا عصره، في مسعىٰ لإعادة اكتشاف أهمية الرؤية الكونية الإسلامية المتكئة علىٰ الوحي؛ وهي الرؤية المؤهلة لتطوير معنىٰ الإنسان الأخلاقي والمجتمع الأخلاقي.

وهو محاورةٌ للنماذج المعرفية الغربية المادية والحركة الإنسانية العلمانية المهمينة علىٰ المعرفة المعاصرة التي أعلت من شأن الإنسان المادي وحطّت من مكانته في الوقت ذاته. ونقدٌ لهذه النماذج المعرفية والحركات الفكرية والفلسفية المؤطرة لها، في مقارنة مع النموذج المعرفي الإسلامي الذي أسكن الإنسان موقعه المناسب في الهرم الوجودي، ودور الإنسان الأخلاقي في الاستخلاف والعمران.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
iiit
INTERNATIONAL INSTITUTE OF ISLAMIC THOUGHT



ISBN 978-1-56564-838-8
9 781565 648388